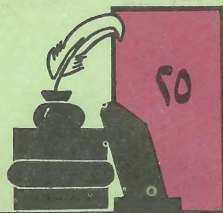


المكتبة الصغيرة



رحلة في كتاب من التراث



عبد القدوس الأنصاري

المكتبة الصغرية

٢٥

رحلة في كتاب من التراث

عبد القدوس الأنصاري

الطبعة الأولى

ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ

أبريل ١٩٧٨ م

الغلاف من تصميم الفنان السعودي : علي الخرجي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله مستحق الحمد والثناء ، وصلاته وسلامه على سيد
الأنبياء المختار من خلقه لرسالته الختامية ، للرسالات السماوية ،
سيدنا « محمد » وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذه « ورقات » ضمنيتها جماع دراسي لكتاب يعد
من أنفس كتب تراثنا الأدبي ، في حقل شعر البداهة والارتجال
.. أحد الأفنان المزدهرة في دوحة الشعر العربي العمودي الأصيل
الموزون المقفى الذي ولد في عصر الجاهلية ، ثم عم الآفاق في
عصر الاسلام المديد الخالد :

وسار مسير الشمس في كل بلدة

وهب هبوب الريح في البر والبحر

'مصاحباً في سياحته العالمية الخالدة الممتعة للفتوحات الاسلامية
في شتى أرجاء المعمورة ماضياً في تطلعه وتحليقه وخلوده الى
الأمام ، متعالياً عن تأثيرات « الغزو الفكري الأجنبي القديم

والحديث « ممعنا في استمراريته على طبيعته التي ولد فيها باديء ذي بدء على ربوات نجد والحجاز من قبل عهد الاسلام حتى اليوم ، وما بعد اليوم ان شاء الله بفضل من الله وتوفيق ..

هذا واني وقد تتبعت قراءة ذلك الكتاب الذي هو : « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر الأزدي الحزرجي - تتبعت قراءة نصوصه تتبع دراسة وفحص وامعان واستنباط .. ثم سجلت ما تجمع محصوله لدي حياله من ملاحظات وآراء وتعليقات وخواطر ، في هذه الأوراق ، وقد أشرت ضمن اطار ذلك كله الى مواقع الروعة والامتع في أشعاره البدهية والمرجلة ، ودونت انطباعاتي واستنباطاتي ، والتزمت الاعتدال في كل ذلك ، الى جانب دقة العمل ، والحرص على تسجيل الواقع دون تزيد أو نقص ، أو اجحاف أو بخس أو افتئات .

وقد عقدت في مطلع هذا الكتيب الذي سميته باسم مستوحى من موضوعه : « رحلة في كتاب من التراث » - عقدت في مطلع فصله عن « تقويم النثر الفني في أدب عصر المؤلف علي بن ظافر » منطلعا الى أدب القرون التي مضت قبله ، والموالية له من كتب ، وذلك لنضع أدب عصره : شعره ونثره ، ومنه شعر البدائه والارتجال موضوع الكتاب ، في مكانه من ميزان التقويم .

وجدير بالذكر والاشادة أن كتاب ابن ظافر هذا لم يكن فيه مرتجلا ، ولا مستعجلا ، فطالما تعاوده بالتعديل والتنقيح ، حتى استوى على هذا الطراز المجلو ، الذي تقرأه فيه اليوم .

ثم زاده قدراً ومكانة وافادة واشراقاً أن وفق الله أحد علماء
العصر الحاضر ، أحد محققي كتب التراث العربي الاسلامي :
محمد أبو الفضل ابراهيم - الى تحقيق طبعته هذه التي صدرت
بمصر في سنة ١٩٧٠ م والتعليق على كثير من نصوصها بما يفيد
ويرشد ، ووضع فهارس عامة له ، مما أضاء لنا أهم جوانبه
المترامية ، وأماط لنا اللثام عن كثير من خبايا درره الكامنة .

بيد أن عمل البشر دائماً لا يخلو من سهو وخلل مهما يجتهد
في تبرئته منهما ، وكل ذلك نتيجة ضعفه الطبيعي الذي خلقه الله
في دائرته .. ولذلك لا غرابة في أن نجد في بعض تحقیقات هذا
العالم الجليل بعض الخلل سواء في جانب تحقیق نصوص الكتاب
أم في جوانب أخرى أشرنا إليها في مكانها من الكتيب .

وهذا لا يضير عمله المرهق الموفق ، ولا ينقص من قيمته
العلمية ، وقد عبر شاعر عربي قديم خير تعبير عما يعتري
الانسان من نقص في 'خلقِهِ وقصور في عمله ، بقوله :

ومن ذا الذي 'ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً أن 'تعَدَّ معاييه

وكتاب ابن ظافر من هذا القبيل أيضاً ، فمع احتفال مؤلفه
بالعناية به شكلاً وموضوعاً فقد اعتراه بعض ما ينقد به بسببه
فكثير من نثره سجع متكلف . غني بالمحسنات البديعية التي زادت
عن حدها .. وهو في ذلك مسير بحكم بيئة عصره التي ارتضت
هذا اللون من الكلام المتأنق فيه ، المتكلف ، المسجوع .

أما شعره المرتجل' والبدهي فمع أنه خفيف الظل فقد طرق في أحد فصوله موضوعات جد تافهة في المعنى والأهداف والمرامي، ولم يوفق - مع كثرتها - في رفع مستوى شاعريته بها كما كان يروم .

ومع كل ذلك فسيظل كتاب « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر الأزدي أحد « عيون الأدب العربي » كما أشاد به محقق طبعته هذه .



هذا وإن من أهم مزايا الكتاب أنه يضع في أيدينا « برهانا واقعياً » على مدى اتساع بحر الشعر العمودي ومدى رحابة صدره وأفقه ، سواء أكان متروى فيه أم بدهيًا أم مرتجلاً - لشتى مرامي الانسان ، في تسجيل مطالبه ، وتحقيق خيالاته ، وإبداع وصفه وتصويره ، لخلجات نفسه ، وما يستجد من مرافق الحياة أية كانت .

ومما يسترعي الانتباه ، ويؤيد قدرة الشعر العمودي المطردة حتى في ميادين العلم الصناعي ما قرأناه في هذا الكتاب القيم من تسجيل لمخترعات عربية في الحضارة الاسلامية الزاهرة بشتى المعارف والعلوم والثقافات . فهذا مثلاً أحد علماء العرب الشعراء الأذكياء يخترع بفكره الأممي - قبل الغرب بعدة قرون - « الانسان الآلي المعروف حديثاً بالروبوت » ثم تقوم شاعريته اثره بتسجيل شعري بدهي لحقيقة هذا الاختراع الذي سبق اليه انسان العرب المسلم ، انسان الغرب المسيحي بقرون عديدة .

لم ياتيه شاعر بديهة آخر معاصر له فتأبى شاعريته الشرة
المتمكنة الا أن تسجل ما قام به زميله في تجربة علمية رائدة أو
اختبار فعصى للاختراع المشار اليه آنفاً .. ويأتي ابن ظافر
ليسجل لنا هذه الوقائع في شعرها البدهي بكتابه الأنيق :
« بدائع البدائه » .



ومتتبع كتابه هذا يدرك بحق براءة الشعر العمودي الموزون
المقفي من التهمة التي يحاول بعض المستوردين لمبادئ الغزو
الفكري الأجنبي - أن يلصقوها بهذا الشعر الأصيل ، من أنه
عاجز عن مجارة الحياة المتقدمة .. ففي هذا الكتاب ما يقوض
هذه التهمة وينفيها نفيًا قاطعاً ، ويثبت عكسها اثباتاً تاماً
ملموساً ٩

عبد القدوس الأنصاري

الفصل الأول

تقويم النشر الفني

في عصر ابن ظافر وما قبله

ظل النثر العربي سائراً في طريقه الترسلية البسيطة المنسجمة مع الذوق العربي المرفه الأصيل . ثم كان للحضارة والترف أثر كبير في أساليبه وفي معانيه . فأخذ يتدرج في التثنيق والزخرفة ، مثل ما تدرج الناس في تثنيق البستهم وإطعمتهم وسائر مرافق حياتهم .. ومن ثم كثر فيه استعمال البديع « المسجع » ودخلته المحسنات اللفظية ، ثم تغلغل في أجزائه تغلغل الروح في الجسد والماء في البلعوم ، ومن ثم أصبحت الكتابة صناعة فنية محضة تزوق كما تزوق العمارات بالألوان من الزخرف المتعاطف وغير المتعاطف ، وأصبح الكاتب انما 'يعنى فيها بالمبنى قبل عنايته بالمعنى في كثير من الأحيان .

وقد مضت القرون الأربعة الأولى للهجرة ، وفن الكتابة محافظ على أساليب البلاغة العربية ، لسلامة أذواق كتاب تلك العصور وغزارة معلوماتهم وسعة معارفهم ، فلم يصب كتابتهم انحطاط معنوي جارف ، من جراء الجري وراء بريق الألفاظ المنمقة .. فلما طلعت طلائع القرن الخامس الهجري برز قرن تحوّل الفن النثري العربي ، وبدأت مع ذلك مظاهر انحطاطه ، فقد افتقرت أذواق كثير من كتابه الى الثقافة العالية ، والى الذوق العربي المرفه السليم ، كما افتقرت أذواقهم المختلطة بملوك الأعاجم وأثريائهم وذوي النفوذ فيهم - الى التمييز الصحيح .. فجاءت ألفاظهم وعباراتهم في الغالب الأعم مما يكتبونه ثراً ، ألفاظاً وعبارات مرصوفة كثيرة

الزخرف والتنميق ، بعيدة عن كل معنى مبتكر ، وبعيدة عن كل فن حقيقي ..

وكان القرن السادس الهجري مرتبطاً بمرکز انحطاط الأدب العربي كله .. الذى غطى آفاق أدب العالم الاسلامي كله فيما بعد .

وكان أول علم من أعلام الأدب العربي فتح للأدباء باب التنميق والسجع المصطنع أدبياً في القرن الهجري الرابع - أبا الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد (٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م) فهو الذى أخذ بادئ ذي بدء بزمام المبادرة في هذا التحول من فن (الترسل) الى فن (الاسجاع) .

وتتلخص طريقته الكتابية فيما يلي :

أولاً : التزام السجع الكثير الفقرات الذى يوازن بين العبارتين المتجاورتين ، حسب الأنظمة الموسيقية .

ثانياً : التصوير والتلوين والتنميق والتطريز فيما يكتب مع وشي السجع في وشي البديع وضروب أساليب البيان ، فيحلي عباراته ويزينها بألوان البديع من طباق وجناس وغيرهما وذلك مثل قوله : (لا جرم ان وقفت بين ميل اليك ، وميل عنك ، أقدم رجلاً لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك) .

ثالثاً : عدم التقيد بالسجع والتنميق تقيداً مطلقاً ، وكان السجع والزخرفة شائعين شيوعاً عظيماً في كتاباته ومن

كتاباته ومن شواهد ذلك قول ابن العميد : (أسأل الله أن يعرفني بركته .. ويرد علي غرة شوال ، فهي أسنى المقرر عندى ، وأقرها لعيني ، ويطلع بدره ، ويريني الأيدي متطلبة هلاله ببشر) .

رابعاً : الميل الى الترادف والاطناب ؛ فقد كان الأسلوب المسجع الذى يعمد اليه ابن العميد في كثير من الأحيان ، يتطلب من طبيعته الاطناب والترادف . ومثال ذلك قوله : (قد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللب ثم يثوب ، ويفسد العزم ثم يصلح) (١) .

خامساً : البراعة في استعمال حروف الجر وسائر الروابط الكلامية .

سادساً : الاغراب في الاشارات التاريخية واللغوية والعلمية ، واغرابه قليل بالنسبة لغيره من المترسلين .

هذا على أن نثر ابن العميد كان صلة وصل بين عهد السجع المتأنق والعهد الذى سبقه (٢) .

وهكذا كان لابن العميد « مدرسة بيانية جديدة » في النثر

(١) تاريخ الادب العربي ، لحنا الفاخوري ص ٧١٨ .

(٢) تاريخ الادب العربي ، لحنا الفاخوري ص ٧١٨ .

الفني ، وهذه المدرسة لها تلاميذ متخرجون منها . ومنهم على سبيل المثال أبو بكر الخوارزمي (٩٩٣م/٣٨٣هـ) وأبو اسحاق الصابي (٩٩٤م/٣٨٤هـ) والصاحب ابن عباد (٩٣٨م/٣٥٨هـ) .. وكل هؤلاء من أهل القرن الرابع الهجري عاشوا الى أواخره كما ترى من تواريخ أعمارهم الآنف ذكرها .



وقد أفضت طريقة الترسل المسجعة السهلة الواضحة المركزة الى طريقة سجعية معقدة جعلت البيان العربي المنثور وقفاً على طائفة تثقفت بهذا اللون من ألوان الأدب النثري ، وقد أغلق باب هذا اللون من ألوان الأدب عن هواة الأدب الذين لم يوفقوا الى التخصص والبراعة في فن السجع وفن التعقيد والزركشة اللفظية ذات البهرج البراق ..

وكان امام هذه الطريقة ومختطها والحفي بها في القرن السادس الهجري هو مجير الدين عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين ثم وزير ابنه الملك العزيز من بعده .. وذلك أنه سن أسلوباً انشائياً بالفا من التعقيد والتكلف مبلغاً عظيماً ودرجة عالية .. كما تدل عليه هذه الفقرات من رسالة كتبها عن صلاح الدين الى الخليفة ببغداد ، يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة ، وانهزام ملكها بعساكره : (لم يبق الا مواقد نيران ، رحلت قلوبهم بضرامها ، وأثافي دهم

أعبلت المهامة بما ركد سغبيهم عن طعامها ، وغربان بين كأنها في
النيار لما قطع من رؤوس بين جامها ، وعوافي كانت تنتظر من
اشلائهم فطر صيامها ، وعادت المرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم ،
وأداء أخبارهم ، ذاكرة أنهم لبسوا الليل حدادا على النعمة التي
خلعت ، وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت ،
وأنهم طلّعوا الأوعار ، أوعالا ، والعقاب عقباناً ، وكانوا لها بيط
الأودية سيولا ، ولأعالى الشجر قضباناً) .



واليك خصائص أدب القاضي الفاضل :

أولا : الاكثار من حل المنظوم ومن التضمين ، ومن
الاطناب في الكلام . وكان للقاضي الفاضل أثر كبير فيمن عاصره ،
وفيمن أتى بعده من الكتاب من هذه النواحي كابن الخطيب
الأندلسي . وقد انتشرت طريقته بسرعة بالغة في المشرق
والأندلس ، وسار عليها الكثيرون في غيرهما .. فجاءت كتاباتهم
كثيرة التكلف والتعسف ، قليلة البلاغة ، ولا سيما وقد ضعف
التفكير ، وضعفت الهمم ، وقد أصبحت الكتابة رصف ألفاظ ،
وزخرفة بيان ، وألغيت لغوية فارغة كانت أحسن ممهد لمهد
الانحطاط (٣) .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٧١٩ الى ٧٢١ .

وفي كتاب « الحياة الأدبية في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري » (٤) بلغت الكتابة العربية درجة عالية من الصناعة والتأنق لم تغل بسلامتها ، ولم تذهب بمعانيها « ، ولا بد أنه يعني بهذا القول عهد ابن العميد الذي سبق طلائع عهد الانحطاط بآمد مديد ..

وكان ابن ظافر مؤلف « بدائع البدائنه » من ذلك الطراز الذي كلف بالسجع والتنميق ورضى بامامة القاضي الفاضل له فيه .



(٤) تأليف محمد عبد المنعم خفاجي .

الفصل الثاني

أحد عيون الأدب العربي

ذلك أن كتاب « بدائع البديع » لعلي بن ظافر الأزدي الخرجي تناول الشعر العربي من جانب واحد ، وهو ما قيل بداهة وارتجالاً . في متتابع الأجيال ، وهو مركب ليس بالسهل ركوبه ، فإن من يخصص تأليفه لهذا الجانب وحده من الشعر ، يقتضى أن يكون واسع الاطلاع على إنتاج الشعر العربي عامة وهذا الجانب منه خاصة .. كما يقتضى منه دقة النظر وتمييز الجيد من الرديء بحصافة بالغة ، ونقد رواية الرواة حوله أو في ذات الشعر نفسه .. وقد اضطلع ابن ظافر بكل هذه المهمات ، ونجح فيما اضطلع به نجاحاً يكاد يكون مائة في مائة ..

وقد أحسن في تدوينه أشعار الأجيال المتتالية من الشعراء العرب بحسب ترتيبها الزمني .. من عهد امرئ القيس في الجاهلية الأخيرة قبل الاسلام ، حتى القرنين السادس والسابع الهجريين اللذين عاش فيهما ابن ظافر بمصر ..

وإذا كان ما يقول حنا الفاخوري في كتابه « تاريخ الأدب العربي » حقاً بأن امرأ القيس الذي بدأ ابن ظافر شعر البداهة بمحاورته لعبيد بن الأبرص قد ولد نحو سنة ٥٠٠م وتوفي في سنة ٥٤٠م فمعنى ذلك أن ابن ظافر تمكن من تقديم مسلسل متناسق من هذه الأشعار المرتجلة قرابة ثمانمائة عام .

فقد أورد ابن ظافر في كتابه مقطوعات متنوعة بذاتها ،

منوعة في أمكنة شعرائها وأزمنتهم في شرق وفي غرب ، وفي شمال
وفي جنوب .. مما دلنا على أن الشعر العربي الموزون المقفى ليس
من الصعوبة بمكان ، كما يقرره لنا خصومه . فمعلوم أن الاتيان
بهذا الفيض الطامي من شعر البداة ، لشعراء متعددين ينقض
غزل هذا القول من أساسه نقضاً مبيناً ..



وقد رأينا أن تصدر هذا الكتيب لكي نعطي القارئ العربي
المتطلع فكرة كاملة عن أهمية هذا الصنيع الذي اختص به ابن
ظافر كتابه ، فجاء آية من آيات الأدب العربي الذي أخرج للناس
في القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين .. وهو بطبيعة
الحال كما يدل على سعة أفق الشعر العربي العمودي الموزون
المقفى — يعطى القارئ أيضاً فكرة طيبة عن رحابة أفق كاتبه
فيما خصص به كتابه الفذ أو القريب من الفداذة ..

وقد يعيب بعض الباحثين المحدثين ، على ابن ظافر تشبثه
بالنثر المسجع في مواطن كثيرة من كتابه ، ونجاحه فيما يتعلق
بالمشاهد أو المناظر التي حازت إعجاباً منه بالفاً .. فليعلم هؤلاء
الناقدون أنه كما أن لكل مقام مقالا ، ولكل مقال مقاماً فكذلك
لكل زمان لون من ألوان الأدب خاص به ، يرتضيه أهله ويمكف
القائمون على الأدب فيه ، بدعمه ونشره ما استطاعوا الى ذلك

سبيلا ، ولا يفكرون في أن يعكروا صفوه على حد آرائهم بانتهاج أسلوب آخر أو البحث عنه مهما يكن ذلك الأسلوب خيراً مما ارتضوه لأنفسهم في هذا الشأن ، وهذه الحقيقة تعم كل الأجيال ، وكل الآداب العالمية في كل الأزمان .

ومن هذا المنطلق - كما يقول كتابنا المعاصرون - كان طبعياً ومنطقياً تشبث ابن ظافر بالسجع في رسائله وكلماته الوصفية الخاصة بما يتعلق بالأدب من قريب أو بعيد ، سواء أكان منظراً معجباً ، أم مشهداً مطرباً ، أم نبأ 'مغرباً' .

وليس ابن ظافر وحيداً في هذه الخطة ولا شاذاً عن أبناء العصور التي سبقتهم .. فقد اتخذوا جميعاً من هذا الأسلوب الذي لا يخلو من تكلف ومشقة على كاتبه ما وسعهم القيام به حيال دعمه وتثبيتته .. فإذا كان ما يكتبون فيه موضوعاً دون ذلك أعطوا أنفسهم وأقلامهم حق بعض الراحة منه ، وخففوا عن أقلامهم بعض المتاعب حيال التزامها تتبع المحسنات اللفظية من طباق وجناس وما أشبه ، وجنحوا عامدين الى « النشر المرسل » كما يستريح الفارس المعلم من المعركة بعد ظفره على الأعداء فهم يرون أن ذلك المقام الرفيع يقتضى منهم تكلف أسلوب أدبي رفيع وممتاز بما حواه من المحسنات وأفنان البدائع الزاهية النظرة في أنظارهم ، وأما دونه في المكانة فلا يمنع فيه التنازل

عن ارتقاء هضبة البيان الأرفع .

والحق يقال أن فحولاً من فحول الأسلوب النثري المسجع المنمق قد ارتضوا لأنفسهم سلوك هذا الأسلوب ، فبرزوا فيه عن سواهم وعرفوا به منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ونذكر في طليعة هؤلاء : صاحب بن عباد ، والشعالبي ، وبديع الزمان الهمداني ، والقاسم بن علي الحريري ، والقاضي الفاضل ، والعماد الاصفهاني الذي بلغ من اعجابه بالنثر المسجع أن ألف كتاباً بتمامه في تسجيل انتصارات صلاح الدين معاصره على الصليبيين ، فجعله كله سائراً على نمط السجع وحشاه بالمحسنات البديعية اللفظية الرنانة .. وما اكتفى بذلك حتى جعل اسم الكتاب نفسه مسجعاً متجانساً أيضاً اذ سماه : (الفتح القسي في الفتح القدسي) ..

واذا كنا في عصرنا الحاضر قد نبذنا وراء ظهرائنا ذلك الأسلوب لأننا رأيناه بحق متكلفاً ، ورأينا حسب طابع عصرنا أن في سلوكه ارهاقاً لنا لا يوافق أمزجة الحياة الحاضرة السريعة ، ولا يتواءم مع التقدم العالمي ومن ثم لم يعد ممكناً لنا أن تعيش في ظلاله الصحافة التي هي آية عصرنا الحاضر ومهماز بيانه . ومن أجل ذلك أقبلنا على زميله السهل السلس الواضح : (الأسلوب المرسل) فما ذلك الا لأننا أدركنا عصرنا آخر غير عصر ابن ظافر

.. أدركنا عصرًا متقدماً عاجلاً متسابقاً في مصالحه ، متداخلاً في أبعاده ومراققه . فسرنا في هذا السبيل الأسهل الذي رأيناه يوافق مطالبنا ، ولا 'يعني كاتبه' ، ولا 'يتعب قارئه' باستخراج درره الكامنة تحت خصبائه في قيعانه وكهوفه ، كما يستخرج صائد اللؤلؤ ، حياته من البحار العميقة من مكان بعيد .. متحملاً أقصى المتاعب في سبيل استخراجها من مكانها القصية وحملها الى سطح البحر من قاعه العميق .. ليعرضها للراغبين بعد ما ذاق لأجلها من الويل والثبور ، عظام الأمور . على أن أدبنا هذا الحديث ذا الأسلوب الخفيف اللطيف لم نكن بدعاً فيه فان له جذوره العريقة منذ عهد أسلافنا الأوائل ، فقد كان أدباء صدر الاسلام يكرهون التكلف فيما يكتبون للخاصة والعامة .. وانظر مثلاً الى ما كتبه المبرد في الكامل وما كتبه عبد الحميد الكاتب ، وما كتبه الجاحظ ، وابن المقفع وغيرهما من أعلام بيان ذلك العصر المجيد ذي الطابع العربي الأصيل فانك تجد كل كتاباتهم آخذة طريق الأسلوب النثري المرسل الذي يتجنب موارد التكلف ، ويؤثر الوضوح على التعقيد ، والجمال الفني المتفتح على الجمال الفني المركب .. ويؤثر الجلاء على الغموض والتزويق .

واذن فان ما نكتبه من الأسلوب الأدبي المرسل في نشرنا هو أمر ذو طابعين : طابع الانبعاث في اختيار الأسلوب الأسهل على الأصعب ، والأوضح على الأغمض ، والأبسط على المركب ،

وطابع مجاراتنا لبني العصر في أسلوبهم الأدبي ذي الصلات الوثيقة بطن الصحافة الحديثة التي غزت بلادنا منذ أوائل القرن الرابع عشر ولا تزال تفرض نفسها بكل ما فيها من حسنات وسيئات وخير وشر على البلاد العربية والإسلامية معاً أسوة بغيرها من أقطار العالم ..



ومن الحق أن نقول — بعد دراسة نشر ابن ظافر الفني وشعر كتابه الخاص أنه كان الفارس المجلي في اجتلاء جواهر الشعر البدهي الخاص والعام ، ثم في بيان الأسلوب المنمق المسجع ، كما كان ذا براعة ملموسة أيضاً في الأدب النثري المرسل ، عندما يشاء أن يكتب في إطار هذا الأسلوب السلسبيل .

وشواهد هذا الرأي ماثلة للعيان في سائر أبواب كتابه (بدائع البدائع) فقد لاحظنا من دراستنا له أنه كان يطلق العنان أحياناً كثيرة لمواد بيانه ، في ميدان « النشر المرسل » إذا كان ما يصفه موضوعاً طبعياً أو خبراً مروياً أو حديثاً عادياً لا يرتقي إلى الفن الممتاز في نظره . أما إذا كان ما يجيل فيه قلمه وصفاً أدبياً ذا طابع أدبي مميز ، فإنه يتصاعد — كما يرى في تسجيله — إلى أسلوب النشر المسجع ، ولا يريم عنه حولا . وكما قلنا آنفاً فإن له العذر كل العذر في هذا الأمر ، لأنه لم

يصل الى درجة « الريادة » في الأدب العربي ، كالمحافظ
وعبد الحميد الكاتب ، وابن العميد ، فيخلق أسلوباً جديداً أو
يعيد بعث الأسلوب النثري المرسل الذي كاد ينقرض آنذاك ، أو
يحدث أسلوباً منمقاً ، خفيف الظل شبه مبتكر ..

وعلى ذلك فمن واجبنا أن نقدر لابن ظافر بيانه ومروياته
من شعر البداة كل التقدير ، وأن لا نلومه على اتخاذ مسيل
كانت هي السبيل الوحيدة للوصول الى أهدافه الوحدة أيضاً في
كتابة النثر الأدبي الفني اذ ذاك ، وأن نشكر له خطواته الهادفة
المتوثة التي وضعت لنا على الثمام أدب أجيال متلاحقة من شعراء
العرب مشتتة في مناطق الأقطار الاسلامية ، مجموعة بشكل فني
لطيف وجذاب في كتاب واحد يعتبر بحق ، أحد (عيون الأدب
العربي) .



$$\omega_{\mathbb{A}^1} = \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1}$$

$$\begin{aligned} & \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \\ & \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \\ & \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \\ & \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \end{aligned}$$

$$\omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1} \otimes \omega_{\mathbb{A}^1}$$

الفصل الثالث

أضواء على الكتاب وكاتبه

كتاب « بدائع البدائ » - معلمة أدبية من نوع خاص ، ان لم ينفرد به فهو أحد عيونه .

وهذا الأدب أكثره أدب ظرف وتسلية وترويح عن النفس ، وترويض للفكر . ويشبه من يمعن في مطالعته من أثر أن يسير في أوقات تنزهاته بين الحدايق الغناء والمياه المتدفقة ، في جو معتدل صاح .. فانه يأنس من نفسه نشاطاً ، ومرحاً في مسيرته وتجوالة ..

وفي هذا اللون من الأدب عدا المتعة النفسية متعة أخرى تتمثل في التقاط جواهر الحكمة ، والبيان الناصع ، والنوادر الطريفة المنثور كل ذلك في دواخله وفي جوانبه ..

ولا أكتف القارئ أنني تماذيت في دراسة هذا الكتاب من ألفه الى يائه حتى آخره .. وقد أنهيت قراءته في نشاط واقبال فائقين .

وليس من ريب عندي في أن كتاب بدائع البدائ ، يعد بحق من مدارس الأدب التراثي الرفيع والتفكير القيم ، وبوسع المرء أن يجتني منه ما شاء له ذكاؤه وألمعيته وأن يلتقط من جواهر المعاني التي تنير له أبعاد عقله ، وتطلق هذا العقل الى أجواء فسيحة من الأدب الجميل الذي يهيؤه ليكون أحد أدباء العصر بقدر استعداده ومواهبه .

ففيه فضلاً عن الأدب الثقيل ، والأدب الخفيف ، مراكز حيوية من أدب المجتمع وأدب السياسة ، وأدب الاقتصاد ، وأدب

العلم ، وأدب الحياة جمعاء .. وهو يقني عن كثير من المراجع الأدبية ، وتجذ فيه ما لا تجد في غيره من مطالبك الفكرية ورغائبك الفنية .. الى معلومات علمية وأدبية مقتطفة من شتى المصادر التي لا يمكنك أن تطلع عليها ، اما لأنها قد ذهبت أدراج الرياح ، أو لأنها لا تزال خطية مدفونة بين رفوف المكتبات الخاصة التي لا تكاد موجوداتها ترى الشمس ..

والكتاب وليد جهد نادر ، ومواصلة معاناة وانتاج بحوث وتنقيبات متوالية ، بدأت مع أوائل عمر ابن ظافر وانتهت بأواخر عمره .. فهو ثمرة عمر مبارك ألمعي شديد الحرص على انجاز مهمة كتابه وابرازه على خير منوال يحتذى .

والكتاب من ثمار عصر تحركت فيه عجلة الأدب عامة والشعر خاصة .. وسواء أنجحت هذه الحركة أم لم تنجح كما يبتغي صانعوها والسائرون في فلکهم فانها والحق يقال قدمت من المعارف الأدبية ، ما جعل في أنظارنا رجال ذلك الجيل - القرن السادس والسابع الهجريين - يمتازون بالتبوع والاستقصاء والجمع ، والاجتهاد في الوصول الى أهدافهم المثلى ، وقديماً قيل بحق :

على المرء أن يسعى على قدر جهده
وليس عليه أن يساعده الدهر

وقد ولد ووجد أعلام في العلم والأدب من جيل ابن ظافر

كانوا ممن يشتر اليهم بالبنان ، وممن تضمنت بعرف تاريخ سيرهم الوضاعة في أعمالهم العلمية والأدبية أسفار ضخام من تاريخ تراثنا المجيد .. وليس هذا موضع احصائهم ، وانما نذكر من بينهم في العلم والتاريخ ، العالم الطلعة : أحمد بن علي المعروف بالمقريري صاحب المواهب العديدة ومؤلف الكتب النفيدة ، والرحالة الشهير محمد بن أحمد بن جبر (١) ، وصاحب العالم الشاعر الأديب الناقد علي بن ظافر الأزدي صاحب الكتاب الفريد في بابه وفي اسمه : (بدائع البدائ) .. الذي طلق على المناصب الحكومية في سبيل العودة الى حظيرة الأدب وأحياء روضها ، وانماء أشجاره وأزهاره ، والاستمتاع بجوه الأنيق ، وملء فراغ الأذن بشدو أطياره .. والارتواء من معين أسفاره ، في مكتبة داره الضخمة الجامعة .. وغيرهم كثيرون وفيرون .. كالعماد الاصفهاني والقاضي الفاضل والصدر الحنجدي .

.. ويكفي فخراً ابن ظافر أنه عاش في عصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي قاهر الصليبيين ، الغلاب ، ومعيد مجد الاسلام ، ومجد العرب ، ومنقذ بلادهم من الاستعمار والاحتلال

(١) للمؤلف كتاب مطبوع عن حياة ابن جبر ورحلاته وأدبه شعراً ونشراً وآرائه الاسلامية والاجتماعية والاقتصادية باسم (مع ابن جبر في رحلته) .

الذى دام حول مائتي عام لديارهم الكريمة العظيمة .



وقد ولد علي بن ظافر بالقاهرة سنة ٥٦٧ هـ وتوفي بها فى منتصف شعبان سنة ٦١٣ هـ فله من العمر ٤٦ عاماً ، وقد قضى عمره فى موضوعين اثنين : أحدهما اداري وثانيهما أدبي .. الاداري هو شغل الوظائف والمناصب العالية التى كان آخرها منصب الوزارة للملك الأشرف موسى ابن الملك العادل أحد ملوك بني أيوب فى بلاد الرها من بلاد الشام وحران ونعيبين وسنجار والحابور ، وقد مكث فى هذا المنصب الى أن تبرم به فاستعفى منه ، وعاد الى القاهرة ليكون حلس منزله والى مكتبته الحافلة بالأدب ، وكان يستقبل وفود الأدباء من كل صوب .. وكان من ثمار علمه وأدبه اصدار هذا الكتاب الفذ الذى حظي بحفاوة بالغة أولاً : من القاضى الفاضل عبد الرحيم بن الحسن البيساني وزير صلاح الدين وامام صناعة الانشاء المتأنق المترف فى عصره ، المولود بالقاهرة سنة ٥٢٩ هـ والمتوفى بها سنة ٥٩٦ هـ ، وثانياً : من الملك الأشرف موسى بن محمد العادل ابن أبي بكر محمد بن أيوب أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام ، وقد كان « جرى فى مجلسه ذكر هذا الكتاب ، فحسن من خاطره موضعه ، وجل عنده موقعه ، فرسم لى — المتحدث هنا المؤلف ابن ظافر — نقله » .

وكتاب علي بن ظافر هذا يشتمل على حكايات منثورة في كتب الأدب والنقد والتاريخ ، مثل كتاب الأغاني للأصفهاني ، ويتيمة الدهر للثعالبي ، ودمية القصر للباخرزي ، والخريدة للعماد الاصبهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والمقتبس لأبي حيان ، والذخيرة لابن بسام ، والعمدة لابن رشيق ، وزهر الآداب للحصري .

يقول محقق طبعته الثانية بمصر محمد أبو الفضل ابراهيم - في مقدمته لطبعة الكتاب المذكورة آنفاً تعقيباً على كلامه الآنف - ايراده : « وكأنه - أي ابن ظافر - وضعها جميعها بين يديه ، وقلب صفحاتها ، ثم انتقى زبدها واختار خالصها ، مما يوافق منهجه في التأليف ، ومذهبه فيما عقد من فصول الأبواب ، ثم أضاف إليها ما رواه عن شيوخه ، والعلماء الوافدين عليه ، وما وقع في مجالسه من مطارحات ومساجلات وحكايات وما دار بينه وبين شعراء عصره وأدبائهم - وأدبائه - في أثناء نزواتهم بين الرياض والفياض ، وعلى أصوات النواعير وخرير المياه حول الشواطئ والغدران ، في غوطة دمشق أو أرباض القاهرة ، أو ساحة منارة الاسكندرية ، أو سفح الأهرام ، مما يذكر قرائح الشعر ويقدح زناد البديهة والارتجال » .

ويضيف محمد أبو الفضل ابراهيم الى ذلك قوله في التعريف بالكتاب الذي نتحدث عنه : « وبهذا أو ذاك اجتمع له طائفة من

٢- رحلة في كتاب من التراث

رائق الأشعار ، وغرر الأخبار ، وبدائع البدائع ، وروائع القصص ، ما لم يجتمع قبله في كتاب ، ثم رتب كل ما ورد من ذلك على الأعصار ، وسردها أحسن سرد ، وبذلك أوفى على الغاية في حسن العرض وجميل التنسيق وانسجام التصنيف .. ويزيدنا علماً بخصائص الكتاب المشار اليه ومميزاته فيقول :

(وقد غلب عليه عند سرد القصص والأخبار الأسلوب الذي كان يصطنعه أدباء عصره في أخريات القرن السادس وصدر القرن السابع (الهجريين) من الاحتفال بالمحسنات البديعية والحلي اللفظية فجاء نثره مسجوعاً موشى بصنوف الجناس والتطبيق والمقابلة والتورية والاستخدام ، كما فعل القاضي الفاضل في رسائله ، والعماد الاصفهاني في فريدته ، وابن بسام في ذخيرته ، وهو أسلوب ان دل على الثروة اللفظية ، والمقدرة اللغوية ، فانه لا يخلو من التكلف والتعمل ، مما يذهب برونق المعاني ، ويباعد بينه وبين الأساليب العربية الفصيحة) ..



هذا ومن دراستنا للكتاب دراسة فحص وامعان ، ظهر لنا أن ما ذكره محقق الكتاب في التعريف به من ناحية غلبة السجع وغلبة المحسنات البديعية على الكتاب ، هو واقع ، ولكن المؤلف ابن ظافر اختص بذلك (النثر الفني) المسجع ، ما يتعلق بالوصف الأدبي المحض لبعض المناظر والمشاهد الأدبية الخالصة

لحسب ، مثل قوله في وصف قصر لبني خليف بظاهر الاسكندرية :
(رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، وقد
ارتدى جلايبب السحاب ، ولاث عمائم الغمام ، وابتسمت ثنايا
شرفاته ، واتسمت بالحسن حنايا غرفاته ، وأشرق على سائر
نواحي الدنيا وأقطارها ، وحيته السحاب بما ائتمنت عليه من
ودائع أمطارها ، والرمل بفنائه قد نثر تبره في زبرجد كرومه ،
والجو قد بعث اليه لطيفة نسيمه) (١) .

لقد قصر علي بن ظافر ، نشر كتابه الفني على الأوصاف
الخاصة بالمناظر والمشاهد التي تظفر بأعجابه . وقد تتبعته في
كتابه فأحصيتها فإذا هي (٧٢) وصفاً أدبياً مسجعا أو منشوراً
النثر الفني السائد لدى جيل ابن ظافر في القرن السادس وصدر
السابع الهجريين وما قبلهما . وكان حامل لوائه في الجو المصري
والشامي في عصر ابن ظافر : القاضي الفاضل عبد الرحيم
ابن الحسن البيساني وزير صلاح الدين وامام صناعة الانشاء
المتألق في عصره . وهذا الانشاء ليس مرتجلاً ولا مبتكراً في
عصره بل ان له جذوراً قديمة ورواداً قبل عصره ومنهم الثعالبي
صاحب يتيمة الدهر وابن بسام صاحب الذخيرة وغيرهما من
فحول هذا البيان النثري التقليدي الذي امتدت فروعه الى

(١) بدائع البدائه ص ٣١٦ و ٣١٧ .

ما قبيل عصر النهضة الأدبية الراهن . وعلى رأسهم جميعاً امامهم
ابن العميد (٢) .

(٢) ورد هذا النشر السجعي في مواضع عديدة من الكتاب ، بعضها مطول
بعض الشيء ، وبعضها وجيز . وهذه أماكن وروده في طبعة الكتاب المعققة ،
وذلك في مقدمة الكتاب : من الصفحة ٣ الى الصفحة ٩ ، في حكاية عن ابن
بسام رواها عن زهير العقلي ص ٨٣ ، في حكاية رواها ابن ظافر عن نفسه
ص ١٠٤ ، في حكاية رواها ابن ظافر عن ابن بسام بمعناه واللفظ لابن
ظافر ص ١٠٧ ، في حكاية رواها عن ابن بسام (في الذخيرة) تدور حول
المعتمد بن عباد ص ١١٣ ، في حكاية له مع شهاب الدين ابن أخت ابن المجاور
بالاسكندرية ص ١١٧ ، وفي حكاية رواها عن القاضي الاعز ابن المؤيد ص ١٢٢ ،
وفي حكاية له بالمقياس بمصر ص ١٢٢ ، وفي حكاية عن ابن بسام ص ١٢٧ ، وفي
حكاية له عن أبي الفرج مع سيف الدولة ص ١٣١ و ١٣٢ ، وفي ص ١٣٣ -
١٤٠ ، وفي صفحة ١٤٢ و ١٤٣ ، وفي ص ١٨٧ ، وفي ص ١٩٦ ، وفي ص ١٩٧ ،
وفي ص ١٩٨ ، وفي ص ٢٠٠ ، وفي ص ٢٠١ ، وفي ص ٢٠٣ ، وفي ص ٢٠٤ ،
وفي ص ٢٠٤ ، وفي ص ٢٠٤ ، وفي ص ٢٠٦ ، وفي ص ٢٠٧ ، وفي ص ٢٠٨ ،
وفي ص ٢٠٩ ، وفي ص ٢١١ ، وفي ص ٢٢٥ ، وفي ص ٢٢٧ ، وفي ص ٢٢٩ ،
وفي ص ٢٤٣ ، وفي ص ٢٤٤ ، وفي ص ٢٤٥ ، وفي ص ٢٤٧ ، وفي ص ٢٥٤ ،
وفي ص ٢٥٦ ، وفي ص ٢٥٧ ، وفي ص ٢٥٨ ، وفي ص ٢٦٠ ، وفي ص ٢٦٨ ،
وفي ص ٢٩٣ ، وفي ص ٣٠٢ ، وفي ص ٣٠٦ ، وفي ص ٣٠٧ ، وفي ص ٣٠٨ ،
وفي ص ٣٠٩ ، وفي ص ٣٠٩ ، وفي ص ٣١٠ ، وفي ص ٣١٣ ، وفي ص ٣١٤ ،
وفي ص ٣١٤ ، وفي ص ٣١٥ ، وفي ص ٣١٦ ، وفي ص ٣١٧ ، وفي ص ٣٢٠ - ٣٢٥ ،
وفي ص ٣٤٣ ، وفي ص ٣٥٧ ، وفي ص ٣٦٧ ، وفي ص ٣٦٩ ، وفي ص ٣٧٠ ،
وفي ص ٣٧١ ، وفي ص ٣٧٢ ، وفي ص ٣٧٤ ، وفي ص ٣٧٥ ، وفي ص ٣٧٦ ،
وفي ص ٣٧٧ ، وفي ص ٣٨١ ، وفي ص ٣٩٠ ، وفي ص ٣٩٢ ، وفي ص ٤٠٥ ،
وفي ص ٤٠٧ .

فهذه ست وسبعون كلمة مسجعة من النشر الفني التقليدي حسب
اعتباره في عصر ابن ظافر ، وهي كل ما ورد في كتابه من القول المسجع الذي
راعى فيه فن البديع ومحسناته .. وكلها تدور حول وصف منظر أو مشهد أو
مخبر .. وأكثرها مما أعجب ابن ظافر نفسه فهو يصف به ما رآه أو خبره أو
استحسنه أو رواه عن الآخرين .

هذا وقد عاش علي بن ظافر في عصر مليء بالحركة السياسية والأدبية والعلمية ، وبالنشاط الاجتماعي والعمراني والسياحي ، وخالط سلاطين بني أيوب وغيرهم في مصر والشام ، وعاش الكبار والصغار والأوساط من أدباء عصره وشعرائه ، سواء أكانوا من المقيمين بمصر والشام أم من الوافدين عليهما من شتى أقطار الاسلام ، وقد افتقدنا بينهم في كتابه (بدائع اليدائ) الرحالة الأندلسي المعاصر له الذي قدم الى القاهرة وأراد جعل إقامته في أواخر حياته بالاسكندرية وبها قضى نحبه بعد وفاة ابن ظافر بيوم واحد ، ألا وهو محمد بن جبير صاحب الرحلة المعروفة .

هذا وقد لاح لي خلال دراستي لموضوعات الكتاب وأسلوبه .. أن طبيعة ابن ظافر الأصلية تميل الى النثر الفني (المرسل) الذي لا تكلف فيه . وآية ذلك ماثلة في نفس الكتاب - فان أغلب الحكايات والأخبار العادية التي أوردها فيه هي مبسطة ومرسلة وواضحة المعاني مسلسلة المباني ، ليس فيها سجع متكلف ولا محسنات بديعية جوفاء تعقد المعاني المنشودة وتغلفها بضباب كثيف من تلك التحسينات التي تجعلها أشبه بالتمائيل الضخمة الجوفاء الخالية من الروح والحركة الفكرية المتنامية .. ذلك أن السجع المتكلف المحشو بالبديعيات ، قد ألقى ظلالة كثيفة من التشوهات على ذلك النثر ، وهذا بخلاف وضع النثر ذي السجع

الحفيف الظريف في زمن الجاهلية وفي صدر الاسلام فانه خال من
التكلف والتنميق ، والتعميد . واخال اني قد فصلت القول في
هذا الموضوع في مكانه من (الفصل الثالث) في هذا الكتيب ..
مما نرى أن فيه الغنية عن اعادته مرة أخرى .



وهناك قضية أدبية أو فكرية اختلف فيها المؤلفون الأدبيون
القدامى .. أشد اختلاف ، ولم يتفقوا فيها على رأي واحد ، ولكل
حجته .. وهذه القضية هي قضية ايراد الألفاظ المستهجنة في
الحكايات وفي الشعر معاً . بعضهم يرى هجرها لما فيها من قلة
ذوق وأدب .. وبعضهم لا يرى هذا الرأي ، ويجزم بأنها لا ضرر
منها ، وبأنها لا تخلو من فائدة الترويح عن النفس المكدودة فهي
تزيح عنها متاعب الجد والكد في الحياة .. وخير ما ورد في تأييد
هذا الجانب من الرأي قول ابن قتيبة في مقدمة كتابه (عيون
الأخبار) :

« وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات
الطعوم ، لاختلاف شهوات الآكلين ، واذا مر بك حديث فيه افصاح
بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع
والتخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء
الأعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور

والكذب واكل لحوم الناس بالغيب(٢) .

وعلي بن ظافر في كتابه موضوع بحثنا .. من أهل هذا الرأي .. ولذلك نرى في كتابه نماذج من هذا الأدب المضحك أو الحاوي للحكايات المأجنة المطابقة لما جاء في كتاب (عيون الأخبار) .

ومن رأينا أن « التوسط » خير ، فيؤخذ من هذا اللون من أدب المجون ما خف حمله ، ولم يغرق في وحل المجون قوله ..



(٢) مقدمة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ص (٥١) م ١ طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر بمصر ، هذا وقد أورد ابن قتيبة دلائل على رأيه المشار اليه وفي طليعتها الحديث النبوي الشريف : (من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه) وقول الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه لبديل بن ورقة حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : (ان هؤلاء لو قد مسهم حز السلاح لأسلموك) - قوله رضى الله عنه : (أعضض يبظتر اللات أنحن نسلمه ؟ (ص ٥) من الطبعة المذكورة آنفا .

الفصل الرابع

منهج ابن ظافر في كتابه

أدرکت من دراستی لمنهج علي بن ظافر في تأليف كتابه
« بدائع البدائہ » أن هذا المنهج يقوم على عدة قواعد قررہا
المؤلف له ونفذہا فيه بدقة .. ويبدو لي أن هذا المنهج هو منهج
علمي حصيلي :

أحدهما : أنه 'يَقْصُومُ' النص الشعري الذي يزعم نقله من
المصادر ، التي اعتمدها لكتابه تقويماً سداه ولحمته الفحص
الدقيق للنص من جميع نواحيه القريبة والبعيدة .. في كيانه
الذاتي ، وفي كيانه اللغوي وفي كيانه التاريخي بين مجموعات
الشعر الذي هو من شعر الارتجال والبديهة ، فاذا استبان له بعد
ذلك كله أن الشعر مستوف لهذه الشروط بادر الى نقله من
مصدره الذي سيذكره نصاً أو تلويحاً .. بسنده المتصل ان كان
له سند أو بطريق المشافهة ان كان معاصراً ومواطناً .. ولا يخلية
نقله له من نقده اذا كان فيه ما يرى أنه يستحق أن ينقد سواء
أكان هذا النقد من أدباء وعلماء قبله أم في عصره أم منه هو
شخصياً .

وليس من ريب في أن هذا المنهج منهج مرض للعلم والأدب
معاً ، ويدل على أن علماءنا وأدباءنا القدامى كانوا مخلصين
لعلمهم وأدبهم .. وكانوا يعرفون ويطبّقون وسائل اثبات
نصوصهما ، ونفي الزيوف والغاها .. كما يدل على عقل علمي
راجح ، وثقافة أصيلة .

ونحن نرى ابن ظافر يثبت شعراً منحولاً في كتابه أو شعراً

منسوبة لغير قائله من ناقله ، ثم هو لا يسكت على هذا « الخلل » بل انه يكشف أمره علنا وينقده نقداً واضحاً بيناً ، ويقدم لنا دلائله على صحة نقله ونقده ..

واذا كان قد خصص كتابه لشعر البديهة والارتجال ، فهو قيد التزام به ونفذه .. فلم يذكر فيما أذكر أي شعر غير بدهي أو مرتجل .. ومن الحق أن التزام هذا الشرط في كتاب ضخيم ككتاب (بدائع البدائع) يدل على سعة اطلاع كاتبه وصبره على التقاط جواهره وعناصره من شتى المصادر المتفرقة في شرق وغرب وفي شمال وجنوب .

ومما التزم به ونفذه فعلاً (وان لم ينص عليه) أنه لا يروى في كتابه أي شعر أو قصة شعر تتعلق بغير العرب مما سلف تدوينه فهو من هذه الناحية كتاب عربي محض .. اللهم الا قصة ذلك الشريف الحسني الذي عرب شعراً أعجمياً وشاع شعره فقلده غيره من معاصريه ومنهم ابن ظافر نفسه .. والحق أن نقل هذا الشعر الركيك الى الشعر العربي كان عملاً ركيكاً بارداً غير مستحق لنقد أو لاشادة أو تقدير .. وقد نقلناه ونقده في الفصل الخاص بموضوعه من الكتاب .

ومع براعة ابن ظافر في نقله وعقله فانه لم يستطع بحال أن يظفر بالطريق الذي يحرره من قيود عصره في جموده .. فكان نشره الأدبي سجعياً متكلفاً نحا فيه نحو نشر « يتيمة الدهر » الذي جعل منه الثعالبي (مثالا) يحتذى في كتابة النشر الأدبي الراقى

كما كان يراه ويراه معاصروه ومن جاء بعدهم من أدباء العرب
الى عصر الانبعاث الحديث .

وفي كتاب (أنباه الرواه على أنباه النباه) لعلي بن يوسف
القفطي عبارات هي : (وسجع له) يأتي بها المؤلف قبل ذكره
للنثر المسجوع الذي يصف به بعض المترجمين بكسر الجيم - لمن
يترجم المؤلف لهم .. وهذه الصيغة بالذات تدلنا دلالة واضحة
على أن أدباء تلك الأجيال (القرن الخامس والسادس والسابع
الهجري) يعتبرون النثر المسجوع أعلى مستوى من النثر المرسل
.. لأنهم يلمسون التكلف والعناية العميقة الموجهة منهم الى
انشائه دون النثر المرسل السهلة كتابته .. راجع (ص ١٩٣)
ج ١ .. وفي الصفحة ٢٤٧ ج ٢ ما نصه : « وسجع له بعض
الفضلاء فقال في وصفه : « وهو في النحو والاعراب » كعبة لها
أفاضل العصر سدنة ، والفضل فيه بعد خفائه أسوة حسنة » وفي
غيرهما كثير من هذا المعنى .



هذا ومن ميزات الكتاب أن مؤلفه قد تمكن من بيان منهجه
فى تأليفه بوضوح كاف فى نطاق عباراته الملتزمة لجانب السجع
دون جانب الارسال اذ يقول فى مقدمة كتابه :

« فحين ظهرت غرر هذا الحق وأوضاحه ، وأناار مصباحه

بل اصباحه ، ضم المملوك (١) جميع ما حصله من بدائع البدائ
أولا وفرطاً ، وآخرأ ووسطاً ، ورتب الجميع على الشرط الأول
من ترتيب الحكايات والأخبار ، على ترتيب الأعصار ، الا
ما يقتضى تقديمه مشابهة ومشاكله ، وزيادة مقاربة ومماثلة ،
وهو فن لم يجمعه قبلى أحد ، ولا سطرته قبل يدي يد « (٢) .
وعلى كثرة ما تتبعت المصادر التراثية لم أعثر على من فرى فريه .
وقد أشار الى هذا أيضاً محقق طبعة كتابه الأخيرة بمصر .

وبعد أن اعتمد ابن ظافر منهج ترتيب كتابه على الطراز
المتقدمة الاشارة اليه ، تمكن من تقسيمه الى أبواب وفصول ،
على النمط الذى ارتضاه والذى رآه موفياً لغرضه ، مؤدياً لما
يريد أن يكون عليه وضعه .

وقد وضع له مقدمة أوضح فيها أغراضه من تأليفه والدوافع
الى تأليفه ، وأبان فيها منهجه فيه ، والزمن المديد الذى قضاه
في تجميع مادته من بطون أمهات الأدب ، وتنسيقها وترتيبها .
وأعقبها بفصلين أوضح فيهما الفرق بين البديهة والارتجال لغة
.. بعد ما شرح معنييهما في نظره حسب ما هدته اليه مراجعته ..
وكان أول باب من أبوابه (بدائع الاجوبة) . فبدائع بدائه

(١) يقصد بالمملوك نفسه . وقد قال هذه الصيغة تادياً مع السلطان
آنذاك .

(٢) بدائع البدائه ص ٦ و ٧ .

الاجازة . فبدائع بدائه التمليط .. ولا تهولنك صيغة التمليط
هذه ، فانه يقصد منها ما قصده ذوو الأدب الشعري منها قبله
.. وهو نوع من المحاوراة الشعرية المرتجلة والبدئية حلله في
موضعه من الكتاب تحليلاً لغوياً وأدبياً وافياً بالمرام . وقد
اعترضتني هذه الصيغة في عناوين الكتاب فبادرت الى مراجعة
معناها فاذا هو سوي رضي لا غبار عليه أدبياً ولا لغوياً .. ولكن
من ناحية مشاركتها لمعنى (التورية) بقيت في نفسى حيالها
بقية من استغراب واشمئزاز .. وبعد ذلك باب بدائع بدائه
البدائه الذى هو خاتمة أبواب الكتاب .

ولا أكتفم القاريء أنه بقي في نفسى حيال الوضع التقسيمي
للكتاب بقية نقد من عدم تمكن مؤلفه من تجويد تقسيمه ، على
المنهج المنظم الواقي التنظيم .. فنراه يضع له مقدمة عامة .. ثم
مقدمة خاصة تحت عنوانين هما : (الفصل الأول في اشتقاق
البديهة والارتجال) .. (والفصل الثاني في الفرق بينهما) ..
ثم من بعد هذين الفصلين أورد أبواب الكتاب الخمسة .. فهنا
شئ من نشاز لم يسع المؤلف الا اقتحامه لضمان تجمع الأهداف
التي توخاها في كتابه .

وأكثر الأبواب بدون فصول .. ولكن الباب الرابع فرعه الى
فصلين وحده دون زملائه الآخرين .. وهذا نشاز آخر أيضاً
اضطره اليه المقام أو المقال .

تلك بعض ملاحظاتي على منهج « بدائع البدائنه » لعلي بن
 ظافر ، وهي ملاحظات ما كان لها أن تقلل من شأن هذا الكتاب
 الفريد في بابه الذي لم أقرأ له قريناً .. ومعلوم أن الابتكار
 والابداع في كل شيء يرافقه خلل وقصور .. لا يتسنى لهما أن
 'يعالجا وأن 'يصلحا ويكملا وينظما الى حد قريب من الكمال الا
 بعد معاناة والا بعد معالجة ومراجعة تقعان بعد دور الرواد
 بأزمان تتفاوت قصراً وطولاً ، والا بعد جهود مضنية متوالية
 يصل بها الأمر المبتكر والمستأنف الى حد بعيد من التنظيم
 والتقويم والاجادة .

وأعتقد أنه يوجد من شعر الارتجال والبداهة في كتاب ابن
 ظافر ما قد لا يظفر به في سواه .. أو بالأحرى انه قد جمع
 كمية كبيرة منه ، كثير منها قيم وفذ ، وقليل منها دون ذلك على
 ما عرفناك به في غضون هذا الكتيب في الفصل الذي عقدناه
 خصيصاً (٣) لذلك الشأن ...



(٣) هذه الصيغة بالألف المقصورة ، قبلها صاد مهملة مفتوحة هي
 الصيغة الفصيحة وحدها . أما قولهم وكتابتهم لهذه الصيغة هكذا :
 « خصيصاً » بصاد منونة بالفتحة فهي غلط لغوي مبين .

الفصل الخامس

أشعار من بدائع البدائه

يضم كتاب (بدائع البدائ) - (٥٠٦) حكاية ما بين صغيرة ومتوسطة وكبيرة .. وكل حكاية تضم طائفة من الشعر المتعلق بها .. وتبلغ الأبيات الشعرية التي تشتمل عليها تلك الحكايات : (٢٤٨٠) بيت من الشعر العربي الفصيح ، وجزء قليلا جداً من الشعر العامي المألوف قوله آنذاك .

وفي الشعر الموجود بالكتاب كثير من بدائع البدائ وروائعها، وبعضه دون ذلك، وبعض بعضه أقل مما هو دون ذلك.. والمؤلف يتوخى من كل ذلك ما يلي :

ترويح الأدب وتنشيطه وإعادة روح الحياة اليه ، والترويح عن القاريء والتنفيس عنه بمتابعة هذه الحكايات المسلية اللطيفة ، وهذه الأشعار الظريفة المبهجة .

ولقد قمت بالاحصاء المتقدم لكي يقف القاريء على مدى اتساع دائرة الأدب العربي وجسامته أهدافه ، وسناء مطالبه ، وتعدد نواحيه ، وكثرة مبتكراته . هذا من جهة عامة .. ومن جهة خاصة ليقف القاريء ويرى بأم عينه كيف تمكن الأدب العربي من أن يربط في سلاسل ذهبية بين الحكاية - أو القصة ، وبين الشعر ربطاً وثيقاً منسجماً حتى ان بعضهما ليتم الآخر ، ولا يكاد ينفصل عنه بأي حال ..

والأشعار الواردة في هذا الكتاب جمعتها - كما قلنا في مكان

آخر - خمسة أبواب وفصلان معها . وكان عملاً مناسباً أن يضع علي بن ظافر لكتابه مقدمة للتعريف بجهوده التي بذلها منذ ربيع عمره في سبيل اصدار هذا الكتاب الذي ربما كان الأول من نوعه . وقد جمعه من شتى المصادر .. الأدبية التي وصلت الى يده .. كما حوى (أخبار الشعراء في البدائه والارنجال) ومحاسن أشعارهم في مضائق الاسراع والأعمال مقدماً على كل قطعة شعرية حكاية نثرية أغلب ما تكون مرسله غير سجعية .

وكتاب (بدائع البدائه) هذا يعد من عيون الأدب العربي المورودة المحمود ورودها ، فهو كتاب ممتع يجمع الى المتعة الافادة والاثارة . ولقد سرت في جوانبه روح عصره .. روح عصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . ذلك السلطان الزعيم البطل الذي كبج جماح الصليبيين المعتدين عن متابعة استعمارهم واحتلالهم لديار الاسلام ، وفي طليعتها القدس وفلسطين وديار الشام فأجلاهم عنها بحد السيف الصارم ، والرأي العبقري المخلص النافذ .

حوار شعري بين امرئ القيس وعبيد الأبرص

بدأ علي بن ظافر في هذا الكتاب بذكر حوار شعري بدهي دار بين أمير الشعراء الجاهليين : امرئ القيس وزميله الشاعر عبيد بن الأبرص، حول أشياء ألغز بها شعراً له عبيد بن الأبرص وأجابه امرؤ القيس على هذه الألغاز شعراً من نفس الوزن

والقافية . وكان مطلع هذه المحاوراة البدئية بين فارسي الشعر
الجاهليين قول عبيد متسائلا :

ما حية ميتة أحيت بميتتها
درداء ما أنبتت ناباً وأضراسا ؟؟
فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى في سنانبلها
فأخرجت بعد طول المكث أكدا سا
فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة
لا يستطيع لهن الناس تماسا ؟
فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها
روى بها من محول الأرض أيباسا

وهكذا مضى الشاعران في مساجلتها على البديهة .. عبيد
يسأل ، وأمرؤ القيس يجيب ، حتى انتهت هذه المحاوراة
الشعرية الى ستة عشر بيتاً ، آخرها قول عبيد بن الأبرص في
تساؤلاته لزميله :

ما الحاكمون بلا سمع ولا بصر
ولا لسان فصيح يعجب الناسا ؟

وقول امرؤ القيس مجيباً عن هذا السؤال المحبوك بجواب
حسن الحبك بليغ :

تلك الموازين والرحمن أنزلها
رب البرية بين الناس مقياساً (١)

مساجلة بين أبي جعفر العباسي وأبي تراب السريحي
ويشني ابن ظافر بمساجلة بدهية أخرى دارت بين الشريف
أبي جعفر مسعود بن الحسن العباسي ، وأبي تراب هبة الله بن
السريحي الشاعر حول قينة تسكن محلة (القطيعة) ببغداد ،
اسمها (بدور) وكان أبو جعفر يعشقها وقال فيها :

شكا القلب ظلمته في الحشى
الي ، فأسكنت فيه (بدورا)

وقد اجتمع الشريف أبو جعفر يوماً وأبو تراب هبة الله بن
السريحي الشاعر ، فقال بديها يخاطب الشريف :
أسلوت حب بدور أم تتجلد ؟
وسهرت ليلك أم جفونك ترقد ؟

فقال الشريف بديها :
لا ، بل هم ألفوا (القطيعة) مثلما
ألفوا نزولهم بها فتبعـدوا
فقال أبو تراب :

فلام تصبر ، والفؤاد متيم
ولظى اشتياقك في الحشى يتوقـد !
فقال الشريف :

(١) بدائع البدائنه ص ١٣ - ١٥ .

ما دام لي جلد، فلست بجازع
إن كان صبري في العواقب يجمد

فقال أبو تراب :

أحسنت ، كتمان الهوى مستحسن
لو كان ماء العين مما يجمد

فقال الشريف :

إن كان جفني فأضحى بدموعه
أظهرت للجلساء أني أرمد

فقال أبو تراب :

فهب الدموع إذا جرت موهتها
فيقال : لم أنفاسه تتصعد ؟

فقال الشريف :

أمشي وأسرع كي يظنوا أنها
من ذلك المشي السريع تولد

فقال أبو تراب :

هذا يجوز ومثله مستعمل
لكن وجهك بالمحبة يشهد

فقال الشريف :

إن كان وجهي شاهداً بهوى فما
يلدري إلى من بالمحبة أقصد

فقال أبو تراب :

قد رجم الناس الظنون وأجمعوا
أن التي ذكرت إليها المقصد

فقال الشريف :

لو يجمعون - كما زعمت - لما رووا
لي في سواها ما نظمت وأنشدوا

فقال أبو تراب :

قد كان حبك غيرها متحققا
والأمر يحدث والهوى يتجدد

فقال الشريف :

حققت 'حبي' غيرها وجعلتها
مظنونة ، ذا كله لي جيد

فقال أبو تراب :

لو لم تقل ألفوا (القطيعة) جاز أن
تنفي به بدر التمام وتجدد

فقال الشريف :

ما قلت لي جلد نفيت به الهوى
عني ، ولكن قلت : في ، تجلد

فقال أبو تراب :

قالي متى هذا وطرف رقيبها
مغض وطيف خيالها متردد ؟

فقال الشريف :

أنا دائباً أبغي الوصال فان أبت
منه على عاداتها فسأجهد

فقال أبو تراب :

اخضع وذل لمن تحب فليس في
حكم الهوى أنف يشال ويعقد

فقال الشريف :

ذا ، لا يكون مع الحبيب وانما

مع ساقط متحيل يتعمد (٢)

وهكذا بلغت أبيات هذه المحاورة البديهة القوية عشرين بيتاً ، كل بيت منها درة متوهجة في معناه أو مبناه ، مما دلنا على أن كلا الشاعرين كان في شعره رفيع المكانة قديراً 'مجيئاً ذا خيال واسع جميل .. وقد زادت هذه المحاورة أربعة أبيات على محاورة غبيد بن الأبرص وامرئ القيس التي قدمنا ذكرها قبلها في هذا الفصل ..

والشريف أبو جعفر وأبو تراب ابن السريحي ، شاعران اسلاميان . وكان من (نظام) صاحب كتاب (بدائع البدائ) أن يَمْضَى 'قَدْماً في هذه المحاورات 'مسلسلاً اياها بحسب ترتيب العصور ، كما قرر ذلك في مقدمة كتابه .. ولكننا نراه يعدل عن هذا الترتيب فيعود الى عصر الجاهلية قصصاً ، فيورد لنا بسنده المتصل الى الاصمعي خبراً و « حواراً » قصيراً يتمثل في بيتين اثنين قال أحدهما رجل جاهلي ضمن حكاية قصيرة تتمثل في أن (أول ما تكلم به النابغة - يعني الذبياني - من الشعر أنه حضر مع عمه عند رجل ، وكان عمه يحب أن يحاضر به الناس ، ويخاف أن يكون عيباً ، فوضع الرجل كأساً في يده ،

(٢) بدائع البدائ ص ١٥ و ١٦ و ١٧ .

وقال :

تطيب نفوسنا لولا قذاها
ونحتمل الجليس على اذاها

فقال النابغة :

قذاها ان صاحبها بغيل
يحاسب نفسه بكم اشتراها (٣)

وواضح أن الكأس التي قال فيها الشاعر الجاهلي المجهول الاسم فيما رواه ابن ظافر عن الاصمعي ، هي « كأس خمر » فهو يرمي بقوله عنها الى أن نفوسهم تطيب باحتسائها لولا قذاها وأذاها . ولذلك فهم يحتملون أذى شاربها جليسهم على ما يحمله لهم من أذى .. ولكن النابغة وهو يسعى للشهرة الشعرية عارض هذا الرجل فيما لا حق له في معارضته فزعم أن دعوته الرامية الى ابعاد الناس عن تناول الخمر ناشئة ومنبثة من بخله في أدام ثمنها الباهظ نسبياً .. فهو — أي الشاعر الجاهلي المجهول الاسم الذي دعا الى الابتعاد عن الكأس والطاس — يحاسب نفسه بالثمن الذي اشترى به كأس الخمر وهذا من آيات بخله وشحه الغالب على نفسه على حد زعم الشاعر النابغة المبطن باستنكاره رأي المهجو في الخمر ابان الجاهلية .

وبعد أن صعد ابن ظافر الى شمراء الجاهلية عاد الى الشعر

(٣) بدائع البدائه ص ١٨ .

البدهي في صدر الاسلام .. فأورد لنا حواراً شعرياً قصيراً دار بين جرير وعدى بن الرقاع العاملي الشاعر ، أمام الوليد بن عبد الملك الأموي .. وكان جرير دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملي - ولم يكن جرير رآه قبل ذلك ، فقال الوليد : أتعرف هذا يا جرير ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ! فقال : هو ابن الرقاع ، فقال الوليد : هو من الذين قال الله فيهم : (عاملة ناصبة تصلي ناراً حامية) .. قال : ويلك يا ملعون ! وقد أنشأ جرير أبيات هجو مقدعة في عدى بن الرقاع أضربنا عنها صفحا مع انها وردت في « بدائع البدائ » ومن ثم وثب عدي فأكب على رجل الوليد يقبلها ويقول : أجرني منه يا أمير المؤمنين ، فالتفت الوليد الى جرير وقال : وتربة (★) عبد الملك لئن هجوته لأجمنك ، ولأسرحن عليك ، ولأطيفنك بدمشق فيعيرك الشعراء بذلك . فخرج جرير فصنع قصيدته التي أولها :

حي الهدملة من ذات المواعيس

فالحنو أصبح قفراً غير مانوس

(★) القسم بالتربة لا يقره الشرع الاسلامي .

افتخر بها بنزار ، وعدد أيامهم ، وهجا قحطان ، وعرض
بعدي ولم يسمه فقال :

أقصر قان نزاراً لا يفاخرهم
فرع لئيم وأصل غير مغروس
وابن اللبون اذا ما 'لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس(٤)

بين أبي بكر بن القيطرنة وأبي العباس بن سارة

وثمت (حكاية) تجر وراءها أربعة أبيات من شعر البدائه ،
رائعة المخبر ، جميلة المظهر ، جرت على لسان كل من الوزير
أبي بكر بن القيطرنة والأستاذ أبي العباس بن سارة في يوم
مطر ، ضحكك فيه الأرض لتعبيس السماء ، واهتزت وربت عند
نزول الماء ، فترافدا (أي تعاونا) في صفتها (في صفة الأرض)
فقال ابن سارة :

هذى البسيطة كاعب أبرادها

حلل الربيع ، وحليها النوار

(٤) بدائع البدائه ص ١٨ و ١٩ واكباب عدى على رجل الوليد ، لانقاذه
من هجاء جرير ، يشبه دعر الأخطل من الجحاف السلمي واستجارته
بعبد الملك من شر الجحاف .. راجع كتابنا (بنو سليم) ص ٢٨٥ و ص ٢٨٧
طبعة دار العلم للملايين - بيروت .

فقال ابن القيطرنة :

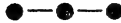
وكان هذا الجـو فيها عاشق
قد شـفـه التعـذـيب والاضرار

فقال ابن سارة :

فاذا شكا فالبرق قلب خافق
واذا بكى فدموعه الأمطار

فقال ابن القيطرنة :

من أجل ذلة ذا وعزة هذه
يبكي الغمام وتضحك الأزهار (٥)



أبو بكر الندى مر بنا ذكره في الكلمة السابقة لهذه هو من وزراء بني القيطرنة كان لهم - كما يلوح من حديث علي بن ظافر - قدم عالية في الشعر ، ومنح بعضهم موهبة الارتجال والبداهة فيه .. فقد ذكر الفتاح في « قلائد العقيان » وأورد ابن ظافر ما ذكره قائلا : خرج الوزراء بنو القيطرنة إلى المنية المسماة بالبديع ، (وهو روض قد اخضرت مسارح نباته ، واخضلت مساري هباته ، ودمعت بماء الطل عيون أزهاره ،

(٥) بدائع البداهة ص ١٩٦ .

وذاب على زبرجده بلور أنهاره ، وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة ،
وأضحت مقل الحوادث عنه مطرقة (الخ . وانتبه كبيرهم
(أبو محمد) في الصباح مستعجلاً وأنشد مرتجلاً :

يا شقيقي واف الصباح بوجه
ستر الليل نوره وبهاؤه
فانتبه واغتنام مسرة يوم
ليس يدرى بما يجيء مساؤه

فانتبه أخوه أبو بكر القيظونة - الذي سبقت آنفاً حكاية
حواره الشعري الناجح مع ابن سارة الشاعر - لصوته ، وتخوف
لذهاب ذلك الوقت وفوته ، وانتبه أخوهما أبو الحسن وهو
يرتجل :

يا أخي قم تر النسيم عليلاً
باكراً الراح والمدام شمولاً
لا تنم واغتنام مسرة يوم
ان تحت التراب نوماً طويلاً (٦)

(٦) في العصر الحديث والشعر العربي الحديث طرق هذا المعنى بخير من
هذا المبني شاعر' العرب فؤاد الخطيب في قوله من « القصيدة الطائفية » التي
نشرتها لأول مرة ، مجلة' المنهل التي صاحبها ورئيس تحريرها كاتب هذه
الحروف ومؤلف هذا الكتيب .. قال فؤاد الخطيب رحمه الله يخاطب نفسه :
ودع النوم وان ليج الكرى فغدا تشبع نوماً في القبور
تطبق الأجفان في ظلمتها وهي لا تعرف للصبح سفور
(ديوان فؤاد الخطيب ص ١٣٨ طبعة مصر) .

فانتبه أخوه لكلامه - يبدو أنه أبو بكر - رافضاً لذة منامه ،
للذة قيامه ، وقال مرتجلاً :

يا صاحبي ذرا لسومي ومعتبتي
وبادرا قهوة من خير ما ذخرا
وبادرا غفلة الأيام واغتنمها
فاليوم خمر وتبدى في غد خبرا (٧)



لقد صدق ذلك الذي قال من الشعراء : (وعداوة الشعراء
بئس المقتنى) . فقد أورد ابن ظافر في كتابه حكايتين استطاع
فيهما شاعران أن يأخذا - بشعرهما ذي الاثر البالغ في النفوس
- ثأرهما ، وأن ينتقما به ممن حقدوا عليه .. حسب ما ترويهِ
القستان التاليتان :

وذلك أنه (كان بين السميسر الشاعر وبعض رؤساء
المرية شيء لمدح مدحه به ، فلم يجزه عليه ، فصنع ذلك المدح
دعوة للمعتصم بالله ، أبي يحيى ابن صمادح ، واحتفل فيها بما
يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم .. فصبر السميسر الى
أن ركب السلطان متوجهاً الى الدعوة ، فوقف له في الطريق ،
فلما حاذاه رفع صوته قائلاً :

(٧) بدائع البدائنه ص ٣٧٥ و ٣٧٦ .

يا أيها الملك الميمون طائره
ومن لذى ماتم في وجهه عرس
لا تقربن طعاماً عند غيركم
ان الأسود على المأكول تفترس

فقال المعتصم : صدق والله .. ورجع من الطريق ، وفسد
على الرجل ما عمله (٨) .

ومحل الشاهد كما يقول النحويون ، يتمثل في تعبيره
الحاذق : (ان الأسود على المأكول تفترس) فانه قول مؤثر لأنه
واقع فعلا .. فالأسود وأغلب الصيد انما يفترسان على الطعم
المأكول ، يخرى به الصيد فاذا وثب عليه صادته الشباك أو صاده
سلاح الرجال ...

فانظر كيف أدرك هذا الشاعر اللبيب علم النفس في هذه
المسألة واستعمله خير استعمال في الموضوع الذى يرغب فيه ،
وفي المكان والظرف المناسب للشخصية الكبيرة التى من طبعها
البشري أن تتأثر أبلغ التأثير بمثل هذا القول في هذا المكان وفي
هذا الزمان ، وبالنسبة لوضعه ووضع داعيمه المحتفل بدعوته
أبلغ احتفال ، فاذا به يصيره بشطرة شعر في أوخم وبال ، وأنعس
حال ، وأقلق بال .

(٨) بدائع البدائه ص ٣٧٩ و ٣٨٠ .

الشاعر عباد بن الحريش يفسد عمل ثري وجيه بشعره

واليك الحكاية الثانية الماثلة التي يقول ابن ظافر ان
الحكاية السابقة آنفاً أذكرته بها وكان قد نسيها ، فتنبه لها
الآن .. تقول القصة : كان عباد بن الحريش قد مدح رجلاً من
كبار أصفهان ، من أرباب الضياع والأملاك والتبع الكثير ،
وكان علي بن ظافر يعرف اسمه ونسبته - فمطله بالجائزة ،
ثم أجازته بما لم يرضه ، فردّه عليه ، وبعد ذلك بحين عمل
الرجل دعوة عظيمة ، غرم فيها ألف الدنانير ، لأبي دلف
القاسم بن عيسى العجلي ، على أن يجيء اليه من الكرج ، فلما
استحق المكرم خرج عباد ليلاً ، ووقف بين الكرج وأصفهان ،
ووصل أبو دلف ، فلما وقعت عين عباد (الشاعر) عليه ، وهد
يساير بعض خواصه ، أوماً الى ذلك المسابير له وأنشأ بأعلى
صوته :

قل لله - يا فديته -

قول عباد : ذا سمج

جئت في ألف فارس

لفداء من الكرج

ما على النفس بعد ذا

في الدنئات من حرج

فقال أبو دلف : وكان أخوف الناس من شاعر - صدق

م- ٣ رحلة في كتاب من التراث

والله ، أجيء من الكرج الى أصفهان ، حتى أتغدى بها !! والله
ما على هذا مزيد من دناءة النفس ، ثم رجع من طريقه ، وفسد
على الرجل ما غرمه وعرف من أين أتى ، وتخوف أن يعود عليه
عباد بأشد منها ، فسير اليه جائزة سنوية مع جماعة ، فلم يقبل
الجائزة ، ثم أنشد بيديها فقال :

وهبت يا قوم لكم عرضه

فقالوا : جزاك الله خيراً ، فقال :

كرامة للشعر لا للفتى

لأنه أحرص من ذرة

على الذي تجمععه في الشتا(٩)

فأنظر رعاك الله كيف عرف هذا الشاعر أن يدخل الى شغاف
قلب أبي دلف بسحر شعره واعتماده في التأثير به على «علم النفس»
فقد سلك طريقه الى فؤاد أبي دلف من طريق القاء التنفير بين
يديه على مركب من الشعر اللبق الذي يعرف من أين تؤكل
الكتف ، فنال مرامه بأكبر قدر ممكن ، وأضاع على خصمه كل
فرصة كانت متاحة له في التقرب من هذا الأمير الكريم
الوهوب ..

ثم أنظر كيف تابى على «الوسطاء» أن يعفو عن خصمه

(٩) بدائع البدائه ص ٣٨٠ .

بعد ما أسقطه في هوة عميقة من الاخفاق وخيبة الأمل .. فأبدى
معلناً ومتشيطناً - في الشطر الأول من بيتيه الأخيرين أنه وهب
مرضه للوسطاء من أصدقائه ، وقد أثنوا عليه ودعوا له بالخير
مقابل هذا العفو الذي يطمح اليه الخصم بكل جوانحه ورغباته ،
ولقد أيد هذا العفو بأنه : (كرامة منه للشعر الذي أهانه
لخصمه لا للفتى) .. ثم عقب مباشرة ومبادرة على هذه العبارة
المفرحة مع شيء من الريب في مغزاها .. عقب مباشرة عليها ببيت
قطع حبال أمل ذلك الخصم من أن ينال ما يطمح اليه كل الطموح
من عفو هذا الشاعر .. ذلك العفو المطلق الكامل الشامل الذي
يعيد اليه أنفاسه ويعيد مجارى المياه بينهما الى حالتها الطبيعية
المرتجاة فألقى عليه الشاعر (عباد بن الحريش) في البيت
الأخير من البيتين قبلة هجاء أشد فتكاً من وقع الحسام المهند ..
فقال ، معللاً ما أورده من أن عفوّه عنه هو لأكرام الشعر وليس
لاكرامه هو لأنه لا يستحق الاكرام قال انه استحق هذا كله :

لأنه أحرص من ذرة

على الذي تجمععه في الشتا

وهكذا قطعت جھيزة قول كل خطيب .. وبلغ الهجاء ذروته
لهذا الفتى المغرور بماله الذي وصل به الغرور الى حد اهانة
هذا الشاعر القدير ...

شاعر ، ذو شعر ساحر

هل هي قصيدة بداهة ؟ أم أغنية من شعر التروي
الدقيق ؟.. وأقصد بها القصيدة الفتانة المرقصة المدوية التي
رواها صاحب « بدائع البدائنه » .. فى نثر سلس القياد جميل
الكيان والبنيان ..

تقول القصة المروية بسند متصل عن المحافظ ابن عساكر
قراءة عليه .. قال : « بلغني أن علقمة بن عبد الرزاق العليمي
لما قصد بدرًا الجمال بمصر ، رأى على بابہ أشرف الناس
وكبراءهم وشعراءهم ، فسألهم عن حالهم (١٠) فأخبرهم
بقدومه ، قاصداً له ، فكل آيسه من لقاءه ، فبيناهم كذلك اذ
خرج بدر يريد الصيد ، فلما رآه مقبلاً ، علا نشزا من الأرض
ثم جعل فى عمامته ريشة نعام ، ليظهر بها نفسه ، ولما قرب
اليه أوماً برقعة كانت معه ، وأنشأ يقول :

نحن التجار وهذه اعلامنا
درر وجود يمينك المبتاع
قلب وفتشها بسمعك انما
هي جوهر تختاره الاسماع

(١٠) سياق الكلام يدل على أن الصفة : (فسألهم عن حاله) أي عن
حال بدر الجمال .

كسدت علينا في الشام وكلما
 قل النفاق تعطل الصنائع
 فأتاك يحملها اليك تجارها
 ومطيها الأموال والأطماع
 حتى أناخوها بيبابك والرجا
 من دونها السمسار والبياع
 فوهبت مالم يعطه في دهره
 هرم ولا كعب ولا القعقاع
 وسبقت هذا الناس في طلب العلا
 فأناس بعدك كلهم أتباع
 يا بدر أقسم لو بك اعتصم الوري
 ولجوا اليك ، جميعهم ما ضاعوا

قال : وكان على يد بدر باز ، فدفعه الى (البازدار) فضرب
 على يده وانفرد به عن الجيش ، وجعل يستعيده الأبيات وهو
 ينشدها الى أن استقر في مجلسه ، ثم التفت الى جماعة غلمانه
 وأصحابه ، وقال : من أجبني فليخلع على هذا الشاعر .. قال
 (علقمة) : فوالله لقد خرجت من عنده ومعى سبعون بغلا تحمل
 الخلع .. وأمر لي بعشرة آلاف درهم ، فخرجت فقلت لمن ببابه :
 الحقوني يا متخلفين (١١) فالحقوني بأجمعهم ، فما فيهم الا من
 خلعت عليه ، ووهبت له من جائزتي (١٢) .

(١١) هكذا ورد هذا المنادى في الكتاب .

(١٢) بدائع البدائ ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

حداد يقرض شعر البديهة

وهذا حداد يقرض شعر البديهة الجيد .. فقد دخل القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين الأمدى النائب على الأمير السعيد بن مظفر فى أيام ولايته بالثغر ، فوجده يقطر دهنأ على خنصره ، فسأله عن سببه ، فذكر ضيق خاتمه ، وأنه ورم بسببه .. فقال له : الرأى قطع حلقتة قبل أن يثفاقم الأمر فيه ، فقال: اختر من يصلح لذلك ، فقال القاضي أبو عبد الله ، فاستدعيت أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد ، فقطع الحلقة وأنشد بديها :

قصر فى أوصافك العالم
وأكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة
يضيق عن خنصره الخياثم
فاستحسنه الأمير ، ووهبه الحلقة ، وكانت من ذهب .



واتفق فى ذات الوقت أن كان بين يدي الأمير غزال متأش
قد ربيض ، وجعل رأسه فى حجره .. فقال ظافر :
عجبت لجرأة هذا الغزال
وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ غدا جاثمأ
وكيف اطمأن وأنت الأسد ؟
فزاد الأمير والحاضرون فى الاستحسان .



وتأمل ظافر شباكاً على باب المجلس تمنع الطير من دخولها
فقال :

رأيت ببابك هذا المنيف
شباكاً قد اخلني بعض شك
وفكرت فيما رأى خاطري
فقلت : البحار مكان الشبك (١٣)



قصة زر من ذهب في تفاحة عنبر

زر من ذهب في تفاحة عنبر .. كان ذلك هدية من امرأة علق
بها الوزير المزدقاني حين رآها في بعض القصور فأعجبته ، فوقف
متأملاً لها ، فأشارت اليه ، وأنس منها قبولاً ، فأرسل اليها
رسولاً يعلمها بشدة شوقه ووجده بها ، فردت رسوله بتفاحة
عنبر بها زر من ذهب ، ولم تكلمه بشيء ، فلم يفتن هو ومن
حضره لتأويل ذلك ، فقال له ابنه أحمد : قد فهمت ما أرادت .
ونظمه في الحال في بيتين ، وأنشد :

أهدت لك العنبر في جوفه
زر من التبر خفي اللحام

(١٣) بدائع البدائنه ص ٢٨٦ .

فالزر في العنبر معناهما :

زر هكذا ، مختفياً في الظلام (١٤)

هذا وما أروع قوله عن عملية الصاق الزر الذهبي بالتفاح العنبري بأن لحامهما ببعض كان خفياً .. وما أجمل تأويله العملية الصناعية الدقيقة : عملية الصاق زر الذهب بتفاحة العنبر فان تأويلها هو رغبتها في أن يزورها هكذا ، مختفياً في الظلام ، اختفاء الزر في التفاحة .. وما أبدع معرفته لسر هذا اللغز العميق وتفسيره له بهذا الشعر البديهي الجميل .



خزانة كتب بشكل سلم

وهذه خزانة كتب ابتكر شكلها السلمي ، عتيق بن مؤمن القرطبي الأنصاري والد راوي قصتها الشيخ أبي الحسن علي بن عتيق الأنصاري ، وهي خزانة كتب في شكل (محمل للكتب من قضبان شبه - صفر - تشبه سلماً . فدخل عليه أبو عبد الله محمد بن مفيد ، فرآه ، فقال ارتجالاً ، مخبراً عن لسان خال السلم :

أيها السيد الذكي الجنان
لا تقسني بسلم البنيان
فضل شكلي على السلالم أني
محمل للعلوم والقرآن

حزت من حلية المحبين ضعفي
واصفراري ورقية الأبدان
فادع للصانع (المفيد) بفوز
ثم وال استدعاء للاخوان

ثم عمل أيضاً على لسان السلم قوله :
أيها السيد الكريم المساعي
التقت صنعتي وحسن ابتداعي
أنا للكتب محمل خف حملي
أنا في الشكل (سلم) الاطلاع (١٥)

فما أجمل التقاء صنعة هذه « الخزانة » السلم ، بصنعة هذا
الشاعر الذي تحدث عن لسان هذه الخزانة المبتكرة الطراز ،
بصنعة صانعها الألمي الطراز .



شاعر بديهة غلاب

ويتحدث ابن ظافر في قصة أخرى فيقول : (دخل الفقيه
الحافظ بن دحية على الفقيه أبي بكر عبد الرحمن بن مغاور
السلمي ، فوقع الكلام في علوم لم تكن من جنس فنونه ، فقال
بديهاً :

(١٥) بدائع البدائه ص ٢٨٨ .

أيها العالم ادركني سماحاً
 فلمثلي يحق منك السماح
 ان تراني اذا نطقت عيباً
 فبناني اذا كتبت وقاح
 أحرز الشأو في نظام ونشر
 ثم أثنى وفي العنان جماح
 فبهزل كما تأود غصن
 ويجد كما تسل الصفاح (١٦)

فما أحسن المنطق في شعر سهل ممتنع ، زاده جمالا والقا
 انه مما قيل بداهة دون ترو وتصنع ..



من شعر البرغوث والبق والبعوض والذباب

ثم هذا شعر (البرغوث والبق والبعوض والذباب) يصفه
 وقعه وأذاه البالغ جماعة من شعراء العرب .. أخذ كل واحد
 منهم وصفه بداهة مما عانى من ايذاء بعض هؤلاء الأعداء الألداء
 .. الضعاف جداً ، جسماً ، الأقوياء جداً عزمًا ، وقرصاً
 ومضاً فقال (بديها) أبو السعادات علي بن بختيار في عدوى
 البشرية : البرغوث الناطق ، والبق الصامت ، وقد اقترح عليه
 أن يقول فيهما :

(١٦) بدائع البدائه ص ٣٩١ .

ولما انتحى البرغوث والبقي مضجعي
ولم يك من أيديهم ما لي مخلص
صفقت بكفي ، اذ مدامتها دمي
فزمر هذا وابتدا ذاك يرقص

وقال العماد : وقد كنت عملت أبياتا ، ارتجالا ، لأصف بها
ليلة بتها بنهر دقلا ، فقلت :

يا لح ا الله ليلة قرصتني
في دياجيرها البراغيث قرصا
شربت بقها دمي فتغت
وبراغيثها تواجدن رقصا
قد تعريت من ثيابي لقرصي
غير أنني لبست منهم قمصا
كلما زدت منهمن بحرص
عن فراشي شربن فازددن حرصا
من براغيث خلتهن طافرات
طائرات ، جناحها فد قصا
عرضت جيشها الفريقان حولي
وهي أوفي من أن تعد وتحصي
لو غزا سنجر بها الغز يوما
لم يدع منهم على الأرض شخصا (١٧)

(١٧) بدائع البدائ ص ٣٩٣ .

فهذا شاعر يتحدث لنا في شعر البداهة عن تجربة مرت عليه
مع « المثني الضار » : البراغيث والبق ، وليست التجربة
الفعلية كالاقتراح المتخيل نتاجه .. على كل حال ..

وهذه تجربة واقعية أخرى يحدثنا بها الشاعر « الحافظ
ذو النسبتين » أو الخطاب ابن دحية الحصري وقد أنشد هذه
المقطوعة لعلي بن ظافر فقال :

ضـاقت بـلنـسـيـة بـي
وزال عـنـي غـمـوـضـي
رـقص البـرـاغـيـث مـنـهـا
عـلـى غـنـاء البـعـوـض

لقد أجمل المعنى الشعري وركزه بهذا الاختصار الموفق :
رـقص البـرـاغـيـث مـنـهـا
عـلـى غـنـاء البـعـوـض

وتجربة أخرى للتسميسير في هذا الموضوع ، أنشد شعرها
لابن ظافر أيضاً :

بـعـوـض شـربـن دـمـي قـهـوـة
وغـنـيـنـي بـضـرـوب الأـغـنـان
كأن عـرـوقـي أوتـارـهـن
وجـسـمـي الرـبـاب وهـن القـنـان (١٨)

(١٨) لعلها : (القيان) بالياء المشناة التحتية ، جمع قينة على ما يقتضيه
سياق الشعر .

لقد أحسن الشاعر السمسير هنا ترتيب الأوصاف الثلاثة في تشبيهات محبوكة لطيفة فكان عروقه أوتار البعوض ، وكان جسمه الرباب ، وكأنهن القيان المغنيات بأوتار الرباب .. وقد جمع الثلاثة كلها ابن رشيق القيرواني .. الذباب ، والبعوض ، والبرغوث ، في سمط بديع من القول المرتجل أو البدهي .. فقال :

لك مجلس كملت بشارة لهونا
فيه ، ولكن تحت ذاك حديث
غنى الذباب فظل يزمر حوله
فيه البعوض ، ويرقص البرغوث (١٩)



ولأحد شعراء اليتيمة أبي أحمد بن أيوب ، قوله في البرغوث والبعوض معاً :

لا أعذل الليل في تطاوله
لو كان يدري ما نحن فيه نقص
إذا تغنى بعوضه طرباً
أطرب برغوته الغنا قرص (٢٠)

وهو قول بديع ورائع على أنه من شعر البدهاة الذي ينأى

(١٩) بدائع البداهة ص ٣٩٤ .

(٢٠) بدائع البداهة ص ٣٩٤ .

عن التروي والتصنع والتكلف ، فهو يجيء واضحاً مبسطاً
شفيفاً عن شاعرية قائله .



هذا وان أقدم وصف وأسماء قوله تعالى فى وصف الذباب
ضعفاً وتشبيهاً : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان
الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان
يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)
صدق الله العظيم .



ومن أقدم ما ورد فى الشعر العربي عن وصف الذباب ، قول
عنترة فى معلقته يصف روضة من رياض البر يتحرك فيها ذباب
الرياض فيحدث دويّاً على قدر حاله .. ولقوة شاعرية عنترة ودقة
ملاحظاته يستخرج من تحرك هذا الذباب بتلك الروضة الغناء
صوتاً موسيقياً رائعاً فيقول :

وخلا الذباب بها فليس ببيارج
غرداً كفعل الشارب المتـرـنـم
هزجاً يحك ذراعـه يذراعـه
فعل المكب على الزناد الأجـنـم (٢١)

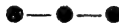
(٢١) معلقة عنترة .

وبالمناسبة فهناك في القرون الأخيرة للهجرة ، وبالدقة في القرن الثاني عشر الهجري يوجد شاعر من المدينة هو السيد جعفر البيتي ، نظم قصيدة مطولة في وصف ما عاناه من البق في مدينة ينبع البحر . وكان نظمه لهذه القصيدة سنة ١١٤٣ هـ وقد عارض بها قصيدة فتح الله بن النحاس .

ومطلع هذه القصيدة المثبتة في ديوانه المخطوط بمكتبة عارف حكمة والتي نشرناها في ص ١٨ من الجزء السابع من مجلة المنهل، السنة الثانية سنة ١٣٥٦ هـ الموافقة ١٩٣٨ م هو :

رأى البقي من كل الجهات فراعها
فلا تنكروا اعراضه وامتناعه
ولا تسألوني كيف بت فاني
لقيت عذاباً لا أطيعق دفاعه

وتعتبر هذه القصيدة من أقوى قصائده وأمتنها ، وأجملها ، وأشملها لوصف هذا المخلوق اللاسع اللاذع القوي اللسع واللدغ على ضعف جسمه وضآلته وهلهلته وميوعته سريعة الانفجار بأهون المفجرات .



شعر البطيخ

يطلق السعوديون المعاصرون — حجازيون ونجديون — اسم (البطيخ) على الفاكهة المستديرة التي لونها من الخارج أصفر

خشن ، ولون داخلها أصفّر. أقرب الى الحمرة هش كثير الحلاوة ..
ويسمون الفاكهة المستديرة ذات اللون الخارجى الأخضر ، حمراء
الداخل باسم (الحبب) وهو اسم عربى فصيح أيضاً . وهذه
البلاد هي مهد العروبة والاسلام فهي أعرف بحقيقة مسميات
اللغة العربية الفصحى لارتباطها بتاريخها القديم ارتباطاً وثيق
مما عداها من الأقطار على كل حال . لأنها التربة التى ولدت
فيها وترعرعت .

واخواننا المصريون المعاصرون يسمون النوع الأول (شاماً)
ويسمون النوع الثانى بطيخاً فأما (الشمام) فهو - على وزن
(شداد) بطيخ كحفظلة صغيرة مخطط بجمرة وخضرة وصفرة ..
رائحته طيبة مليئة جالبة للنوم وأكله ملين)(٢٢) .

وأما تسمية النوع الثانى ذى اللون الخارجى الأخضر فيبدو
أنه تحريف للمسمى به بالنسبة للاسم الصحيح له .. حتى في
عرف قدمائهم .. وذلك ما يدل عليه ما أورده علي بن ظافر
المصري من الحكايات البطيخية الشعرية في عصره ومصره -
القاهرة وما حولها من المدن والأرياف ..
قال :

وأخبرني أبو عبد الله المنجم بن العراف ، قال . دخل

(٢٢) القاموس المحيط .. مادة (الشم) .

منزلي الأديب الأعز أبو الفتح ابن قلاقس ، وجماعة من أصحابنا ، فأحضرت لهم بطيخة صفراء وشققتها عليهم .. فارتجل الأعز :

أتانا الفقيه ببطيخة
وسكينة قد أجيدت صقالا

فقطع بالبرق بدر الدجى
وناول كل هلال هلالا (٢٣)

فتأمل قوله في نثره : « فأحضرت لهم بطيخة صفراء » .. وانظر قوله في شعره مكرراً نفس المعنى : « فقطع بالبرق بدر الدجى » تدرك صحة نظرتنا السالف ذكرها آنفاً .



ما هو البطيخ ؟

وبوسعنا أن نستدل على أن البطيخ هو ما كان أصفر اللونين : الداخلي والخارجي معاً ، بما ذكره الرحالة ابن جبير في رحلته التي مر فيها على مصر ودخل الحجاز من طريق ميناء

(٢٣) بدائع البدائنه ص ٢٩٥ .

هيناب .. فانه أجاد وصف (البطيخ المكي) وفضله برائحته
الزكية العبقة وطعمه اللذيذ .. قال ما نصه :

« ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل ،
وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ،
وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به
الداخل عليك ، فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك ، فيكاد
يشغلك الاستمتاع بطيب رياه ، عن أكلك إياه ، حتى اذا ذقته
خيل اليك أنه شيب بسكر مذاق ، أو بجنى النحل اللباب . ولعل
متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو ، كلا لعمر
الله ! انه لأكثر مما وصفت ، وفوق ما قلت» (٢٤) .

وهذا الوصف يتفق تماماً مع البطيخ الأصفر في لوني
خارجيه وداخله ، ولا ينطبق مطلقاً على ما يسمى في مصر حالياً
باسم (البطيخ الشلين) .. ولا على غيره مما يضارعه لونا
وطعماً .



(٢٤) رحلة ابن جبير ص ٩٨ ط دار صادر دار بيروت - بيروت وقد بحثت
هذا الموضوع من جميع جوانبه في كتابي الذي طبع بالقاهرة سنة ١٣٩٧ هـ =
١٩٧٧ م : (مع ابن جبير في رحلته) .

البحثري يسلب بشعره البدهي درتين من المتوكل

هذا وقد يصل شعر البديهة الى مرتبة عالية من البلاغة قلما يصل اليها شعر الروية والصناعة ، وقد يصل الى درجة نفعل في النفوس فعل السحر ، فتستنزل العصم من قنن جبالها المشمخرة ، وتفتح لقائليه أبواباً مغلقة محكمة الاغلاق ، من الجوائز التي تنهال عليهم من أرباب العطايا من الأمراء والآكابر والآثرياء .. وقد ترتفع قيمة هذه الجوائز الى درجة عالية..فقد ذكر ابن ظافر بسنده المتصل الى أبي عبادة البحتري الشاعر - وكان الخليفة المتوكل أدخله في ندمائه - قال : « دخلت على المتوكل يوماً ، فرأيت في يديه «درتين» ما رأيت أشرق منهما ، ولا أنقى بياضاً ، ولا أكبر ، فأدمت النظر اليهما ، ولم أصرف طرفي عنهما..ورآني المتوكل ، فرمى الي ، التي كانت في يده اليمنى ، فقبلت الارض وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعاً في الأخرى ، فعن لى أن قلت :

بُسْرَ مَرَّانَا امام
تَغْرِقُ من كفه البحار
خليفة 'يرتجى ويخشى
كأنه جنة ونار
الملك فيه وفي بنيـه
ما اختلف الليل والنهار

يـداه في الجـو و ضربان
هـذى على هـذه تغار
وليس تأتي اليمين شيئاً
الا أئت مثله اليسار

فرمى بالدرة التي كانت في يده اليسار ، وقال : خذها
يا عيار ! (٢٥) .



ومما لا شك فيه أن أبيات البحتري هذه تبرهن للقاريء على
مدى مرونة الشعر العربي العمودي المقفي الموزون ، وطواعيته
للافصاح عن أغراض الانسان ومراميه مهما تكن عميقة أو
بسيطة ، بشكل منقطع النظير ، يدل على مدى سعة هذه اللغة
لمطالب الحياة مهما تكن متطورة أو متغيرة في أي زمان ، وفي
أي مكان .. وفي هذا دحض لقضيتين خاسرتين . احدهما :
دعوى جمود اللغة العربية وعجزها وقصورها عن التعبير عن
مطالب الحضارة الحاضرة ، وثانيتهما دعوى قصور الشعر العربي
الأصلي في لفته الأصلية عن التعبير عن شتى مرامي الفكر
الانساني ، والحياة الانسانية المختلفة والمؤتلفة .. مما يبثه رجال
الغزو الفكري من الأشواك السامة في طريق نهضة العرب والاسلام

(٢٥) بدائع البدائى ص ٣٤٤ وأبيات البحتري هذه مثبتة في ديوانه
ص ٢٣٠ - طبعة الجوائب بالاستانة ١٣٠٠ هـ ، وطبعة بيروت ص ٢٨٧ .

في اطار لفتهما لفة العرب السخية المرنه المعطاء الشاعرة كما
يقول عباس محمود العقاد رحمه الله .



أصفار على اليسار

وهذا شاعر حاضر البديهة ، قوى الشاعرية ، رائع الجرس
في شعره المرتجل يحكم على أدباء عصره بأنهم « أصفار على
اليسار » فهو يراهم ، من عجائب زمانه ولو انبسطت يده فيهم،
لردهم الى الكتاتيب .. وما ذلك الا لتفاهة أدبهم وضحالة انتاجه
وخسته .. هذا الشاعر هو عقيل بن نصر الذى حضر مجلساً
فيه أحداث من الكتاب ، فاختلفوا في شئ من الآداب الى أن أفضى
بهم ذلك الى السباب ، فقال عقيل على البديهة ، ما يقول عنه
علي بن ظافر في كتابه « بدائع البدائه » : « وأنشد فيها بعض
الرؤساء ولم يعلم قائلها » :

تعس الزمان فقد أتى بعجائب
ومحارسوم الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدي
فيهم رددتهم الى الكتاب (٢٦)



(٢٦) بدائع البدائه ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

والعكوك الشاعر يستولى بشعره المرتجل على ثلاثة آلاف درهم

وحينما يمتزج الأدب العربي عامة ، والشعر منه خاصة ،
بفكر الأديب والشاعر امتزاجاً جيداً قائماً على أصول المعرفة
والثقافة مع جرعة ذكاء واستعداد فني يصبح الأدب عامة والشعر
خاصة بالنسبة لصاحبهما كالبصر للعين المبصرة ، والذوق
لللسان ، والسمع للأذن ، واللمس للبنان .. فهذا علي بن جبلة
الأعمى العكوك لقي طاهر بن الحسين ، وهو في حراقة (٢٧) له ،
فقال له طاهر : انك قد قلت في أبي دلف :

انما الدنيا أبو دلف
بين مبداه ومحتضره
فإذا ولي أبو دلف
ولت الدنيا على أثره
فاصنع لي مثلهما ، ولك بكل بيت ألف .. فصنع بديهاً :
عجبت لحراقة ابن الحسين
كيف تعوم ولا تغرق
وبحران ، من تحتها واحد
ومن فوقها آخر مطبق

(٢٧) الحراقة هي نوع صغير من السفن يتنزه فيه وكانت بالبصرة .

وأعجب من ذاك أعـواـداها
وقـد مسـها كيف لا تورق ؟

فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، فأخذها وانصرف (٢٨) .



من روائع شعر البدائه

من بدائع البدائه التي تفضي بنا الى الاقتناع بمقدرة اللغة العربية في تكوين جيل بل أجيال من رواد الشعر البدهي القوي الذي يوصلنا بدوره الى عدم وجود أي عجز أو قصور في هذا الشعر العمودي أو فراغ يملؤه ما يسمى بالشعر الحر ، وهو ليس شعراً وليس حراً كما قلته بصراحة في محاضرة كنت ألقيتها في سنة ١٣٩٥ هـ - بالمرناء - التلفزيون السعودي بجدة ، من تلك البدائع ما ذكر ابن ظافر في حكاية أبي تمام ويعقوب بن الصباح الكندي فيلسوف العرب وذلك حينما تقدم أبو تمام فألقى بين يدي أحمد بن المعتصم في حياة أبيه قصيدة أولها :

ما في وقوفك ساعة من باس
تقضي رسوم الأربع الأدراس

(٢٨) بدائع البدائه ص ٢٨٩ .

فلما انتهى الى قوله :

اقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء اياس

قال له الكندي : ما زدت على أن شبهت الأمير بصالحك
العرب ومن هؤلاء الذين ذكرت ! وما قدرهم ..!؟ فاطرق
أبو تمام يسيراً ثم أنشد :

لا تعجبوا ضربي له من دونه
مثلا شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

فجئ الحاضرون استحساناً مما أتى به (٢٩) ، وأجزل أحمد
صلته .. ولما خرج قال ابن الصباح : ان هذا الفتى قصير
العمر ، لأنه ينحت من قلبه .. فكان كذلك (٣٠) .

(٢٩) عبارة « فجئ استحساناً الخ » من بعض لوازم ابن ظافر في كتابه
.. قالها عقب إirاده حواراً شعرياً بين العباس بن الأحنف والذلفاء ، وقالها
أيضاً في موضع آخر ص ٩٣ من بدائع البدائنه ..

(٣٠) بدائع البدائنه ص ٢٩١ .

الفصل السادس

بدائه أشعار ليست في مستوى البدائع

المرء دائماً مفتون بابنه وشعره .. وحينما يصل اعجاب
الشاعر بشعره الى مستوى الافتتان ينقلت منه زمام ميزانه ،
فتحجب عنه رؤية نقائصه ، فيغفل اليه أن شعره يستحق منه كل
الاكبار .. كما يستحق ذلك من كل الناس .

ويبدو أن علي بن ظافر - مع علو كعبه في الأدب وفنونه
بالنسبة لعصره وما يليه صاعداً أو نازلاً - قد وقع في
شبكة هذه (النظرة) فجر عليه ذلك أن يقدم في كتابه نماذج
من شعره ما كان لها أن ترتفع الى مستوى البدائع . فان
موضوعاتها تافهة لا تستحق التدوين في الشعر ، وأسلوبها
ركيك أيضاً .

وليس هذا الرأي من اطلاق القول على عواهنه ، ولا من باب
التجني على أديب كبير ذي ثقافة واسعة كابن ظافر ، ولكنه ناجم
من الواقع الملموس لكل ذي عينين يطالع كتابه كما سيأتي
تبيينه ..

فمثلاً : (الفصل الأول من الباب الرابع فيما وقع الاتفاق
عليه) يوجد فيه الشيء الكثير من ذلك :



مباراة شعرية مخففة

وخذ مثلاً لذلك هذه الحكاية النثرية الشعرية :
قال ابن ظافر في سياق حديث له عن اتفاق خواطر الشعراء

حدثه به ابن المؤيد قال : اجتمع هذا مع جماعة من أدباء أهل الاسكندرية في بستان بعض أهلها في روض أنيق ، وبين أيديهم بركة ماء جميلة باسمه الأزاهر ، ونثر عليها بعض الحاضرين ياسميناً زان سماءها .. قتناشد ابن المؤيد والعباس بن طريف (الخراط) الاسكندري ما حبراه من الشعر البدهي في وصف ذلك المنظر اللطيف .. وأورد ابن ظافر ما تقاولا فيه . فسمع أبو عبد الله ابن الزين النحوي القصة ، ولم يحضر المجلس ، فقال هو أيضاً بيتي شعر في الموضوع ، وأضاف الى ذلك علي بن ظافر في كتابه (ثمرة قريحته) في هذا الشأن ...

ثم قال علي بن ظافر : وسألني الأعز رحمه الله تعالى ، أن أصنع في مثله فصنعت :

زهر اليا~~س~~مين ينثر في الم~~ا~~

ء ؟ أم الزه~~ر~~ في أديم السماء ؟!

أم هم~~ا~~ مبسم شنيب شتيت

في رضاب الخريدة الحسناء ؟

ظل يحكي عقود در على صد

ر فتاة في حلة زرقاء !

وإذا خلته حباباً حسبت الم~~ا~~

ء طيباً كالمقهوة الصهباء (١)

فأي ابداع في هذه الصور المتخazole ؟ فانه اذا صح تشبيه

(١) بدائع البدائنه ص ٢٤٧ و ٢٤٨ .

الزهر - بفتح الزاي - المتناثر فوق الماء ، بالنجوم الزهر - بضم
الزاي - في أديم السماء ، فانه من غير الواضح أن يعاد تشبيهه
ثانية بضم شنيب ، شتيت في رضاب فتاة خريدة ؟ وهل الفم في
الرضاب ؟ أم الرضاب في الفم ؟.. الذى 'يعرف أن « الرضاب »
هو « الريق » وأن « الريق » يتماوج في الفم ويحل به . وليس
الفم هو الذى يتماوج في الريق أو يحله .. فالقم ظرف للريق،
والريق مطروف له ..

ثم كيف يعود فيشبه الياسمين المنثور على صفحة الماء بعقود
در على صدر فتاة جميلة في ثوب أزرق ؟ هل الثوب الأزرق مجسد
دائماً لجمال الفتيات اذا لبسنه ؟.. فيما لو كان كثيفاً وداكن الزرقة
أو خفيفها ؟

ومرة أخرى يعود فيشبه الياسمين المنثور على أديم الماء
بحباب تحسب الماء من طيبه أو طيبها أو طيبهما معاً كالحهوة
الصهباء .. فما هي هذه (المفارقة) في هذا التشبيه المتكلف ؟!



هذا وليس ما ارتجله (الخراط الاسكندري) العباس بن
طريف من (الشعر) في هذا الموقف الا لون من (خرط الشعر)
على المعنى الذى يقصده العوام من هذا التعبير ، (خرطه)
هكذا .. وهو - أي شعر (الخراط الاسكندري) ليس أعلى مكانة
من شعر (ابن ظافر القاهري) .. كلاهما ساقطان في بؤرة شعر

التفاهة وليس يدريان ...

يقول « الخراط الاسكندري » :

نثروا الياسمين لما جنوه
عبثاً فاستقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكي
زهر الأرض في أديم السماء(٢)

لقد أراد (الخراط) أن يقلد البحري في وصفه لبركة
المتوكل حين قال فيها :

فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
وريق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها(٣)

ولكنه عجز عن اللحاق بهذا الشاعر البعيد الشأو ، فاتى
(بخرطه) العجيب ، وخلطه الغريب ...

مفهوم قوله : انهم نثروا الياسمين حينما اقتطفوه ، ولكنه
لا يفهم لماذا جنوه عبثاً وكيف استقر فوق الماء .. من تلقاء نفسه
من غير أن يكونوا هم الذين ألقوه على صفحته ؟ وليس مفهوماً
كيف انقلب الوضع في البيت الثاني .. اذ شبه الشاعر زهر

(٢) بدائع البدائع ص ٢٤٧ .

(٣) ديوان البحري ص ١٧ طبعة الجوائب بالاستانة ١٣٠٠ هـ و ص ٣٥
طبعة بيروت .

الكواكب يزهر الأرض في أديم السماء .. فما هذا الخلط والخرط
الخرط القشاء أو القتاد ؟ وخير مما قاله (الأديب الخراط)
أو (الخلاط) قول زميلهم علي بن سيف الدين الحصري في نفس
المعنى :

نثروا الياسمين في لجة الماء
ء فغلنا النجوم وسط السماء
فكان الماء في باطن الأرض
أو الدرطف فوق الماء

لقد قارب وصف البحري في قصيدته (الهائية) التي وصف
بها جمال بركة المتوكل ، فزينت هذا الجمال ، بجمال شعري
خالد أخاذ .

على أن أبا عبد الله بن الزين النحوي أحد المتحاورين في
(نثر زهر الياسمين) لم يحضر المجلس ، ولكنه حينما سمع
قصته تطوع فقال بديهاً أيضاً :

نثر الغلام الياسمين ببركة
مملوءة من مائها المتدفق
فكانما نثر النجوم بأسرها
في يوم صحو في سماء أزرق

ويتراءى لي أن هذا القول يخرج من نطاق الشعر بمعناه
الصحيح ، الى (نظم الفقهاء) للوقائع والمسائل التي يرومون

تسهيل حفظها عن طريق ابرازها نظاماً - على أذهان طلاب العلم
.. كالألفية في النحو وابن عاشر في الفقه وغيرهما . [ابن عاشر
مؤلف كتيب منظوم على بحر الرجز في الفقه المالكي] .



شعر النشفة

ثم انتقل ابن ظافر الى (اتفاق الشعراء على نظم مخصوص)
وأورد فيه (شعر النشفة) وما أدراك ما شعر النشفة ؟

يروى ابن ظافر : « صنع الشريف أبو المحاسن ابن الشريف
ضياء الدين فضل الله بن علي بن عبد الله الحسني الراوندي
القاشاني في تعريب شعر أعجمي :

اني لأحسد فيه المشط والشفه
لذاك فاضت دموع العين مختلفه
هذا يعلق في صدغيه أنمله
وذا يقبل رجليه بألف شفه

وتسامع الناس بهذا المعنى ، فاجتمع على العمل فيه جماعة
منهم شمس الدين شاد الغزنوي .. وكان حينئذ بأصبهان فقال :

اني أغار على مشط يعالجه
ونشفة حظيت من قـربه زمنا

هذا يغازل صدغيه وأحرمه
وذا يقبل رجليه ، ولست أنا

وقال أيضاً :

المشط والمنشفة المحمود شأنهما
كلاهما في الهوى بالسعد ملحوظ
فتلك بالثمن من رجليه فائز
وذاك بالمسك من صدغيه محظوظ

وقال فخر الدين البسام :

أغار منه على مشط ومنشفة
حتى أغص بدفع فيه منسجم
فذا يمد يديه نحو طرته
وذي يقبل فوها صفحة القدم

وقال العماد : وعملت وأنا في سن الصبا ، وشعري حينئذ

لا أرضاه :

مشط ومنشفة فيه حسدتها
دمعي لذا بهما فياض عارضه (٤)
فتلك حافظة من مس أخصه
وذاك مستغرق في مسك عارضه

فكل هذه الأبيات التي أقحمها ابن ظافر في كتابه (بدائع
البدائ) لا تساوى في فن الشعر ، قلامة ظفر .. وهي تدل على

(٤) بدائع البدائ ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

نكسة أدبية للشعر في القرن السادس والسابع الهجريين . وهي في واقعها تشبه ما كنا نسمعه ونحن في عهد الصبا وريعيان الشباب من أشعار الشعراء المتخلفين ، الذين برزت شاعريتهم الغثة في العهد الأخير من عهود الجمود الفكري والخمول الشعري .. قبيل بدء عهد الصحوة الأدبية لدينا في نشر وفي شعر .



صفة الموز ومنافعه

ومن شعر البدائه التافه شكلا وموضوعاً ما نظمه كل من أبي علي الحسن بن رشيق الأزدي ، وأبي عبد الله بن شرف القيرواني - وكانا شاعري المعز بن باديس وملازمي ديوانه ، فقال : أحب أن تضعا بين يدي قطعتين في صفة (الموز) على قافية الغين ، فصنعا حالا من غير أن يقف أحدهما على ما صنعه الآخر ، فكان الذي صنعه أبو عبد الله بن شرف القيرواني قوله :

يا حبذا الموز واسعا
من قبل أن يمضغه الماضيغ
لان الى أن لا مجلس لــــه
فالفهم ملآن به فارغ
سيان قلنا : مأكـل طيب
فيه والا مشرب سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

موز سـريع أكله
من قبل مضغ الماضغ
ماكلة لأكـل
ومشرب لسائغ
فالفم من لين به
ملآن مثل فارغ
يخال وهو بالغ
للحلق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نضع على حرف الذال ، فعملنا ولم ير
أحدنا صاحبه ما عمل ، فكان ما عملته :

هل لك في موز اذا
ذقناه قلنا : حبذا
فيه شراب وغذا
يريك كالماء القذى
لو مات من تلذا
به لقيـل ذا بـذا

وما عمله ابن رشيق :

الله موز لـذيذ
يعينه المسـتعيد
فـواكه وشـراب
به يـداوى الوقـيـد

ترى القذى العين' فيه كما يريها النبيذ(٥)

وتعليقي على المقطوعات الأربع أنها كلها من الناحية الشعرية .. صفر في صفر .. فهي لا تعدو نظماً فيه محاولة لذكر بعض مزايا الموز ومنافعه الطبية .. أما الناحية الفنية في منظر الموز وغضاضته الخ فهي مفقودة في هذه الأبيات .



غزل خال من كل روح شعرية

أورد ابن ظافر إحدى عشرة قصة تحتوي كل قصة منها على شعر غزلي أقل ما يقال في وصفه أنه ليس شعراً بل نظماً مصطنعاً بارداً مثلجاً .

تقول إحدى تلك القصص : ان جماعة من أدباء عصر الأديب الأعز أبي الفتوح بن قلاقس وعلي بن مفرج بن المنجم أرادوا أن يصنعوا شعراً في صفة غياب الشمس في المغرب وارضاء الليل سدوله على الدنيا .. وقام الشاعران المذكوران بينهم فأطرق كل واحد منهما مفكراً ، وميز ما قذفه إليه خاطره من المعاني ، فلم يكن الا كرجعة طرف حتى أنشدا .. فكان ما صنعه ابن المنجم :

(٥) بدائع البدائع صفحة ٢٤٠ و ٢٤١ .

وعشاء كأنما الأفق فيه
لازورد مرصع بنضار
قلت : لما دنت لمغربها الشمس
ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا
رأ فاعطاه الرهن نصف سوار

وكان الذى صنعه أبو الفتوح ابن قلاص :

لا تظن الظلام قد أخذ الشم
س وأعطى النهار هذا الهلالا
انما الشرق أقرض الغرب دينا
رأ فاعطاه رهنه خلخالا

وقد عقب ابن ظافر - على ما يبدو من سياق الكلام -
القطميتين فنقدهما بقوله : (وقطعة ابن المنجم أحسن من قطعة
الأعز ، لتنصيفه السوار ، وعلى كل حال فقد أبدعا ، ولم يتركها
للزيادة في الاحسان موضعاً) (٦) .



.. وراقم هذه الحروف يعقب على كلام ابن ظافر : بأن كلتا

(٦) بدائع البدائه ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

القطعتين لا خير فيهما ولا شعر ، فهما عبارة عن نظم سمج ركيك
لخيال شبه مريض لم يأت القاريء بشيء جديد ولا بشيء يفيد ،
ولا بشيء ذي بال أو جميل .

وبقية القصص العشر هي من هذا القبيل .. والكتاب يقرأ
من عنوانه .. على أننا سنتحاشى مظنتك بنا في أننا أسرفنا في
النقد ، وبالفنا فيه حيال هذه المختارات من شعر البدائه
والارتجال .. فنقدم لك فيما يلي دليلاً آخر ناطقاً وشاهداً على
ما عرضناه عليك آنفاً في هذا الموضوع .

وذلك أن المؤلف علي بن ظافر ، قد تحركت شاعريته
الكامنة في هذا اللون من شعر البدائه فذكر لنا أنه قد جرى له
مثل ذلك مع القاضي الأعز أبي الحسن علي بن المؤيد ..
رحمه الله .. فقد مرا عشية على بستان مجاور للنيل فرأيا فيه
بثراً فيه - فيها - عليها دولابان يتجاذبان ، وهما يدوران
ويفيضان ماء أغزر من دموع العشاق - كما يقول - وهما يثنان
أنين المشتاقين ، وقد ازدهى عليهما الروض وازدهر ، وجرت
أنامل النسيم على ميادين الزهر ، فاستحوذ ذلك الموضع عليهما
وملأ أبصارهما 'حسناً' ، ومالا إلى الدولابين ، وتناشدا ما وصفت
به الدوليب من الأشعار ، وأفضى بهما الحديث إلى ذكر الأعمى
التطيلي وقوله في أسد نحاس يقذف الماء :

أسد ولو أني أنا
قشـه' الحسـاب لقلت صخره

فكانه أسد السما ع يُمْنَج من فيه المجره

فقال له أبو العز : يتولد من هذا معنى في الدولاب ما يأخذ
بمجامع المسامع ، فتأمل ابن ظافر قوله فأعجبه ، وأخذ كل منهما
ينظم ما جاش به خاطره ، ليولد من البيتين ما يضارعهما من
بنات الشعر فلم يكن الا كنقر العصفور ، الخائف من الناطور ،
حتى أكمل كل منهما (عملية التوليدية) من غير أن يقف
أحدهما على ما (ولده) الآخر .. فكان الذى قاله أبو العز :

حبذا ساعة المجرة والدو
لاب يهـدي الى النفوس مسره
أدهم لا يزال يعدو ولكن
ليس يعدو مكانه قدر ذره
ذو عيون من القواديس تبـدي
كل عين من فائض الماء عبره
فلك دائر يرينا نجوماً
كل نجم منها يرينا المجره

وكان الذى قاله علي بن ظافر :

ودولاب يئن أنين ثـكلى
ولا فقدا شـكاه ولا مـضره

تري الأزهار في ضحك اذا ما
 بكى بدموع عين منه ثره
 حكى فلما تدور به نجوم
 تؤثر في سرائرنا المسره
 يظل النجم يغرب بعد نجم
 ويطلع بعد ما تجرى المجره (٧)



والذي يبدو من تأمل المقطوعتين وثالثتهما الأولى أن
 ما 'نظمن فيه' كلهن لا يستحق عناية شعرية كهذه ، وأن ما قالاه
 فيه بديهة لا يستحق أن يعد من شعر البدائى الراقى .. فهو في
 مستوى منخفض لا يرتفع رأسه الضئيل الى أي شموخ أو علو في
 سماء الأدب الذى يعتز به قائله ، والشعر الذى يباهي به ناظمه
 .. ولكن المرء بابنه وبشعره مفتون ، كما يقول المثل السائر من
 قديم .



شعر البغلة

ومن البدائى غير البدائع ما تحدث به لنا ابن ظافر عن
 الأديب راجح بن اسماعيل الحلبي ، قال : خرجنا مع مذهب
 الدين أبي الحسن علي بن نظيف أيام كتابته للملك المعز اسحاق

(٧) بدائع البدائى ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

ابن الملك الناصر - رحمه الله تعالى - الى الأهرام للتنزه ، ومعنا
الأديب بهاء الدين الساعاتي والجمال ابن التاج البغدادى
والمهذب بن الخيمي والأوحد المعروف بالواسطي .. فاتفق أن
كبت به بغلته ، ثم وثبت ، ثم رفعت يديها .. فتعاطينا القول
في ذلك .. فبدر بهاء الدين ابن الساعاتي فقال :

قيل مادت من تحت ذا السيد
الأرض ولم تاتننا له بمثال
هو طود النهى ومن أعجب الأ
شيء أرض تميد تحت الجبال

وقال ابن التاج :

جلست بغلة الأمين تريننا
صدق حس كأنه الهام
أظهرت ميزة على النوع اذ أص
سبح في الحسن ذاعلا لا يرام
نحن في خدمة قيام لديه
ثم بغلاتنا لديه قيام

وقال الواسطي :

لم تكب بغلتك الخضراء من خور
يا من هو اليوم للاسلام مسعده
لكنما الأرض مادت تحتها طربا
اذ شرفت بك يا من طاب محتده

وقال ابن الخيمي :

أقسمت بغلة الرئيس المفلدى
حين حطت لعجزها منه صدرا
انما رفعت يديها قنوتا
بعد أن قبلت ثرى الأرض عشرا
اذ غدت من حجاه حاملة طو
دأ ومن جود كفه العذب بحرا (٨)

قال : (القائل الأديب راجح بن اسماعيل الحلبي خامس
الأدباء الخمسة المتبارين في وصف كبو البغلة وملابساته الفنية
المتكررة) :

وحسام ملك يستضاء برأيه
ويقل حد النائبات بحده
لم تكب بغلته لحون قوائم
تطأ الصفا فترض صفحة صلده
لكنها حملت مشرع سؤدد
بذ الأكارم فى امامة مجده
سجدت وقد ظلت صفوف وقوده
من خلفه يتلون آية حمده

وهكذا اعتبر هذا الشعر العجيب (بغلة السيد) امامة ،
ومأموموها هم الوافدون على صاحبها الذين تلوا بعد سجودها
آية حمده .

(٨) بدائع البداهة ص ٢٦٣ و ٢٦٤ .

وتعقب ابن ظافر القطعة الأخيرة لراجح بن اسماعيل
الحلي فقال : (قال علي بن ظافر : وقد رأيت هذه القطعة
التي نسبها الحلي لنفسه في ديوان ابن الساعاتي . وكان الحلي
مع جودته كثير الاغارة عليه) (٩) .



وأقول تعقيباً على القطع الخمس المذكورة آنفاً : انها كلها
تعتبر من نوع (الحربشة) الشعرية المصطنعة التي لا قيمة لها من
الناحية الأدبية الفنية .. فلا يحق لها بهذا الاعتبار أن توضع
بين صفوف شعر بدائع البدائه بحال من الأحوال . ففي بيتي
ابن الساعاتي : أن الأرض مادت تحت السيد ، وأن من أعجب
الأشياء أن تميد الأرض تحت الجبال .. ولم تمد الأرض ولم تكن
البغلة أرضاً ، وتشبيهها في كبوها أو حملها بالأرض غير وارد
ولا مقبول ، وانما هي قد عثرت ثم قامت من عثرتها كأي حيوان
يعثر ثم ينهض .. والموضوع من حيث هو سخي في العرض
والتقدير والتصوير ...



وفي شعر الواسطي تكرر نفس المعنى ولكن بشكل آخر :
مَيْدَانُ الأرض من تحت صاحب البغلة طرباً من تشريفها
يراكبها الذي طاب محتده .

(٩) بدائع البدائه ص ٢٦٤ .

وزادت الأبيات الثلاثة التي وضعها ابن الغيمي - الطينة
بلة .. فانه جعل بغلة الرئيس متكلمة واعية اذ لقد أقسمت
صديقة في قسمها حين حطت صدرها عجزاً عن حمله .. بأنها انما
رفعت يديها الى فوق لأجل أن تدعو دعاء القنوت الذي يستحب
فيه - عند الشافعية - رفع اليدين للقاتن المصلي .. وكان ذلك
منها بعد أن قبلت ثرى الأرض عشر مرات ، والسبب الذي حملها
على هذا كله هو أنها أصبحت من ضخامة عقل ممتطيها ، مثقلة
مرهقة رازحة تحت أعبائه الثقال . لأنها - والحق يقال - انما
تحمل طوداً في حجاب ، وبحر جود في كفه .. فحق لها - والحال
هذه - أن تكبو وأن تعثر ..



هذا وقد قدم الأديب راجح بن اسماعيل الحلبي مديح (حسام
الملك) كتمهيد للوصف .. وله الحق في ذلك على ما يراه ،
فحسام الدين هذا يستضاء برأيه ، ويفل النائبات صارم مجده
.. ومن هذا المدخل الجديد تسربت بداهة شاعريته ، أو شاعرية
بداهته الى وصف وضع البغلة المحظوظة بابرار عذرها الممدوح
المحمود فيما حدث لها من كبوة وعثرة ، فأنها فعلت ذلك لا لخيانة
قوائمها الشديدة القوى والاحتمال ، فان من قوة قوائمها المعروفة
أنها اذا وطئت الحجر الصلد هشمته .. وفتتته تفتيتاً .. وحقيقة
الأمر الذي ألزمها هذا الكبو الغريب بالنسبة لها بالذات ، ناشئة

من أنها حملت ذلك الذى يشرع قوانين المجد الأرفع ، وغالب
الأكارم بمجده وجوده ، فسجدت بغلته ، ولما سجدت (وهذا نوع
غريب من تقديس الحيوان الأعجم للإنسان) صارت صفوف
قصاده من الناس تتلو آية حمده بعد سجود بغلته الواعية
الرشيدة ...

فأي ابداع في هذه البدائى المتفاوتة في التقليد والتكلف في
معرض المللق والتفاهات الرائجة اذ ذاك في سوق الابتذال
والخنوع ..

لا جرم أن هذا اللون من الشعر في كتاب (بدائع البدائى)
على جلالة قدر مؤلفه وكون الكتاب من عيون الأدب العربى ،
- لا جرم أن هذا الشعر يصح أن يوضع في صف (شعر الدعاية)
الرخيص .. وكل هم الشاعر هنا تزجية الفراغ واشباع نهمه في
التؤلف والملق لكسب المنافع وجر الفوائد . ونيل الشهرة
المنشودة ...



الفصل السابع

لقطات متناثرة من الكتاب

ليس كتاب « بدائع البدائه » مقصوداً على سرد هذا الشعر
البدهي والمرتبجل الذي جعله مؤلفه موضوع كتابه .. فضمن هذا
السرد حوى الكتاب ألواناً من المعارف التي للشعر البدهي علاقة
ما بها .

وفي خلال دراستنا لنصوصه تمكنا من أن نلتقط بعض
جواهر ذلك (النثر) .. وتسجيله في هذا الكتيب ، وفي هذا
الفصل بالذات .

ونذكر لك أولاً ، وبالمناسبة - ما وقفنا عليه من حديث اختراع
« الانسان الآلى » الذى هو أعجوبة الزمان والذى لم يصل بعد
الى المستوى المنشود تماماً ، والذى أصبح بنو العصر الحاضر
على مشارف الحاجة الملحة اليه جداً بسبب ندرة العمال بالنسبة
لاحتياجات بني العصر ومطالبهم الفائقة المتصاعدة .

ولقد جاء في نصوص الكتاب نص يفيدنا بدون التواء أو
محاياة بأن « الانسان العربي » في اطار حضارته الاسلامية قد
قام باختراع هذا « الانسان الآلى » فعلاً ، واستخدمه في بعض
مرافق حياته فقام بالمهمة الموكولة له ، وقد 'جرب فنجحت
تجربته .. وهذا ما ستقرؤه في هذا الفصل بالذات ان شاء الله .



ابنة تفوق والدها الشاعر الفحل في شعر البداة والارتجال

يحدثنا ابن ظافر بقصة تلك الابنة الشاعرة بنت الشاعر
التي تفوقت على أبيها في ميدان الشعر المرتجل والبدهي تفوقاً
بارزاً .. فلقد جلس حسان بن ثابت رضي الله عنه ليلة مع ابنته
ليلي ، فجعل يريد شعراً يقوله ، فقال :

متاريك أدبار الأمور اذا اعترت

تركنا الفروع واجتثنا أصولها

ثم أجبل : (يريد الزيادة فلم يقدر) . فقالت له ابنته :
كأنك قد أجبلت ؟ فقال : نعم .. قالت : أفأجيز عنك ؟ قال :
نعم ! فقالت :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا

كرام يعاطون العشرة سؤلها

فحمي حسان ، فقال :

وقافية مثل السنان رزينة

تناولت من جو السماء نزولها

فقالت :

براهما الذي لا ينطلق الشعر عنده

ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فقال : والله لا قلت بيت شعر ما دمت حية ! قالت : أو
أؤمنك ؟ قال : فذاك ، فأنت آمن أن أقول بيت شعر ما بقيت ! (١)



كتاب « الحديقة » الحديث .. قبله كتاب « الحديقة » القديم

إذا كنت واسع الاطلاع فانك واجد أن الكثير من أسماء الكتب
الحديثة سبق أن سمى بها الأقدمون كتبهم ، بشكل أو بآخر ،
فليست أسماء كثير من كتبنا الجديدة بداخلة في اطار قول ذلك
الشاعر : « كم ترك الأول للآخر » ومثلها في هذا مثل أسماء
الناس أنفسهم ..

وكنت — وربما كثيرون مثلي — أعتقد أن كتاب محب الدين
الخطيب الصغير الحجم « الحديقة » .. هو وحيد الدهر في اتخاذ
هذا الاسم الجميل الوجيز المعبر خير تعبير عن المرام الموضوع له
.. ولكن عندما طالعت كتاب « بدائع البدائه » وقفت على أنه
اسم وضع علماً في القديم على أحد كتب الأدب . فالسيد محب الدين
الخطيب اما أن يكون اذن مقتبساً أو مستعيراً لهذا الاسم اذا علم

(١) بدائع البدائه ص ١٩١ والاجبال — لغة هو : توقف الشاعر عن قول
الشعر .

بوجود اسم سابق له فيما مضى .. أو يكون ذلك من باب توارد
الخواطر كما يقولون .. وعلى كل فالاسم قد ثبت أنه مسبوق إليه
بدون ارتياب .



تمليط ..

.. كان « أبو الصلت أمية بن عبد العزيز » تحدث - على
ما يروي لنا علي بن ظافر - في كتابه المسمى « الحديقة » قال :
أخبرني محمد بن حبيب القلانسي الشاعر ، قال : حضرنا ليلة
بمجلس السلطان أبي يحيى تميم بن المعز بن باديس ، فالتفت
حميد بن سعيد الشاعر الى مملوكين من مماليكه قد جمعا بين
رأسيهما متناجين فقال لى : مَلِطَ : (٢)
أنظر الى اللمتين قد حكتا :

فقلت : جنحي ظلام على صباحين
فقال : فاعجب لفصنين كلما انعطفا
فقلت : ماسا من اللين في وشاحين
فقال : ظبيان يحمي حماهما أسد
فقلت : لولاه كانا لنا متاحين

(٢) التمليط فى مصطلح شعراء البديهة والارتجال هو كما عرفه
ابن ظافر : « أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريد أفكارهم وتجريب
خواطرهم فى العمل - أى فى عمل الشعر بديهة فى معنى واحد ص ١٦٧ .

فقال : فلو تدانيت متهميا لدنت
فقلت : مني في الحين أسهم الحين (٣)



الطارمة

وردت «الطارمة» في حكاية مطولة استغرقت من المطبوعة المحققة
احدى عشرة صفحة ، ويبدو أنها قد استهوت عاطفة ابن ظافر
فنقلها من كتاب « اليتيمة » للشعالبي ، وقد رواها في موضوع
«اجازة أكثر من بيت بأكثر من بيت» من حكاية أبي الفرج البغفاء
في دير مران . وأكثر ما ورد في هذه الحكاية ، من النثر المرسل ،
وأقله سجع ، وهي قصة غارقة في باب الغزل الذي كان مستحسنًا
في تلك القرون .. وشعرها أكثره بين بين ، ويكفيه أن يكون
« مقبولا » .. لما توشحت به أبياته من مظاهر تكلف التشبيهات،
وأقله قوي النسيج ، لطيف الحوك في الأسلوب .. ومن القسم
الأول قول أبي الفرج من قصيدة رائية :

جرت فيه أفراس الصبا بارتياحنا
الى دير 'مران' المعظم والعممر
فان رائحة التكلف تنبعث قوية جليلة في قوله :
جرت فيه أفراس الصبا بارتياحنا
الى دير 'مران' المعظم والعممر

(٣) بدائع البدائه ص ١٧٨ .

والقصة في حد ذاتها يمكن أن تعد من الأدب المكشوف بعض الشيء .

وقد استرعى نظري فيها ذكرها للطارمة في فقرات هي :
(فإذا أنا ببيت فضي الحيطان ، 'رخامي الأركان ، يضم طارمة
خيش مفروشة بحصير مستعمل) . واذن فالطارمة كلمة مألوفة
الاستعمال في القرون الخوالي .. ولم ترد بهذه الصيغة ولا
بالمعنى في « القاموس المحيط » للفيلسوف أبي عبد الله في مادة (طرم) ..
وهي في تهميش محقق الطبعة : « بيت كالقبة » وهي في نجد
« الطرمة » .. التي هي الغرفة العلوية المطلة رأساً على خارج
باب الدار من فوقه مباشرة ، ويستطيع من بداخلها أن يعرف
الطابق ، فيدخله إذا شاء ، ويدعه يعود إذا أراد .. وهي
« الطيرمة » بزيادة ياء ساكنة بعد الطاء المفتوحة ، في لهجة أهل
الحجاز .. ويقصدون بها الغرفة التي تبنى فوق أسطح المنازل
لتكون مستقراً لأفرشتهم التي كانوا يفرشونها وأغطيتهم التي
كانوا يتغطون بها إذا ما ناموا في تلك الأسطح صيفاً ..

ومن هذه التعريفات يبدو لنا أن (الطارمة) قد حدث بكل
من صيغتها ومعناها - تغير شامل .. تنقلت في أهابه صيغتها وما
تحمله من معان في متلاحق الأجيال والقرون حتى وصلت إلينا في
هذه المملكة تحمل معنيين مختلفين في الكنه .. فهي في نجد بمعنى ،
وهي في الحجاز بمعنى آخر ، والمعنيان متقاربان في المبنى والمعنى ..



اسم عربي قديم

سمى بعض السعوديين المعاصرين بعض أبنائهم بهذا الاسم ، ضمن اطار حركة التغير في (الأسماء) التي دخلت هذه البلاد بعد انحسار عهد العثمانيين ، وعقب اتصال بعضهم بالخارج .. سمي بعضهم ابنه (مرهفا) وسمعت ' أناساً في 'جدة ينكرون هذه التسمية ويعتبرونها بدعة جديدة من هذه البدع التي شملت أسماء البنين والبنات .. فبعض الآباء والأمهات يؤثرون تسمية أبنائهم وبناتهم بأسماء عربية خالصة قديمة جداً ، كنزار ، وعدنان ، وقحطان ، ويعرب ، وإياس ، وزهير ، وبعضهم يؤثرون لأولادهم أسماء بعضها عربي مبتكر ، وبعضها ذو مساس بالأسماء الافرنجية ، وقد حسب المتحدثون الناقدون اسم (مرهف) من نوع الأسماء المخترعة حديثاً . وقد طالعت فيما بعد كتاب «بدائع البدائه» فعثرت فيه على أن الأمير الشجاع أسامة بن منقذ من أهل القرن السادس الهجري ، سمي ابنه (مرهفا) .. قال علي ابن ظافر : (أخبرني الأمير الأجل عضد الدين مرهف بن أسامة ابن منقذ) الخ (٣) .

وصيغة (مرهف) لغة مأخوذة اما من : (رهف) السيف كمنع : رققه كأرهفه ، أو من (رهف) ككرم رهافة ورهفاً

محركة . دق ولطف) ، وكلا المعنيين متقاربان . يصح اندماجهما
في مادة واحدة أصلية .



الفول .. مذموماً وممدوحاً

جاء ذلك شعراً في كتاب بدائع البدائه .. فبعضهم مدحه
وأعلى شأنه بين البقول ، وبعضهم حط من قدره وأزرى به حتى
جعله من علف البهائم .. وليس من ريب في أن هذا من شأن
« البيان العربي » القدير الذي بوسعه أن يعرض عليك صفات
المتحدث عنه أياً كان : من ناحيته المشرقة الوضيئة فاذا الاشراق
والبهاء يكللانه ، كما ان بوسعه في نفس الوقت أن يقتحم أغوار
طبيعته الغريزية أو المكتسبة فيستخرج لك منها فريثها و'غثاءها
وينشره بين يديك فاذا أنت متقزز نافر كاره لهذا الذي يصفه
لك بالنعوت الرديئة المنكرة .. والبيان العربي في كل ذلك صادق
كل الصدق ، ناطق بالحقيقة الواقعية بدون تعمل أو تصنع ..
وقد صور لنا شاعر عربي قديم حين تصوير هذه « الظاهرة » من
ظواهر بياننا العربي العالمي العريق الدقيق في بيتين هما :

تقول : هذا 'مجاج النحل' تمدحه

وان ذممت فقل قيء الزنابير

مدح وذم وذات الشيء واحدة

« ان البيان 'يرى الظلماء كالنور' »

وقول هذا الشاعر الكبير : ان البيان يرى الظلماء كالتور ..
هو في منتهى الدقة في التصوير . فالبيان العربي كشاف للمحاسن
والمساويء معاً ، وهو مثل الصورة ، الجيدة التي تحوي ميزات
كثيرة من أهمها تسجيل دقائق كيان المصور من جميع أبعاده ..
ونواحي تكوينه الخفية والجلية .

والحق يقال ان هذا الشاعر كان مقتبساً للمعنى وليس
مؤسساً له .. ان أساس هذا المعنى الحكيم الرائع يكمن في الحديث
النبوي الصحيح : (ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما)
وقد قاله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حينما استمع الى
بعضهم وهو يضفي مديحاً عاطراً على أحد الجلوس ، ثم سرعان
ما قلب الجبة فأمطره ذمّاً .. وكان مديحه له صائِباً لأنه اتجه به
نحو ابراز كيانه من أحد أبعاده الوضيئة .. كما أن ذمه صحيح
لأنه اتجه به الى ناحية أخرى من أخلاقه وأوضاعه الرديئة .

قدمنا لك ما سبق ذكره لندخل من بابه الى حكاية « الفول »
التي أوردها ابن ظافر في كتابه .. تقول الحكاية : ان الناصر
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن
عبد الرحمن الداخل ، جلس في جماعة من خواصه ، ومعهم
أبو القاسم : ('لب') .. وكان يعدده للمجون والتطايب - أي
المزاح - فقال له : 'أهج' عبد الملك بن جهور أحد وزرائه ..
فقال : أخافه .. فقال لعبد الملك : فاهجه أنت ! فقال : أخاف

على عرضي منه .. فقال : أهجوه أنا وأنت . ثم صنع :
'لب أبو القاسم ذو الحية
طويلة في طولها ميل'

فقال غيد الملك :

وعرضها ميلان ان كسرت
والعقل مافوك ومخبول

فقال الناصر : للب : أهجه فقد هجاك .. فقال بديها :

قال أمين الله في عصرنا
لى حية أزرى بها الطول
وابن جهير ، قال قول الذي
ماكوله القرضيل والفول
لولا حيائي من امام الهدى
نخست بالمنخس شو ...

ثم سكت .. فقال الناصر : هات تمام البيت ، فامتنع ،
فقال له : « قولو » (يعني تمام البيت) .. قالها الناصر
مسترسلا غير متحفظ من زيادة الواو ، وابدال الهاء واوا ، اذ
صوابه (قلّه) . على حكم المشي مع الطبع والراحة عن التكلف
.. فقال « لب » : يا مولانا ! أنت هجوته .. ففطن الناصر
والحاضرون وضحكوا .. وأمر له بجائزة .

وقد فسر ابن ظافر « القرضيل » الذي جاء في هجاء ابن جهور
بأنه شوك له ورق عريض تأكله البقر ، وقد قرن القرضيل

بالقول بأنه مأكول الوزير ابن جهور فهو اذن معدود من البهائم .. وفسر (شو) بأنها كلمة رومية و (قولو) كذلك ، وهما بمعنى مكاني الحدث (٤) .

وهكذا نرى « القول » يذكره الشاعر 'لب في معرض الدم والهجاء ..

ولكن هذا « القول » نفسه يصبح في نظر شاعر آخر موطن مديح وثناء واستحسان .. اذ يجعله من جملة « اللآلئ المشرقة الرفيعة المقدار في نظر الانسان .. فهو در الرياض المنتخب للمديح ، وهو أكل الظرفاء وطعم الأدباء ، وكل من له ظرف وذوق سليم يهوى القول ، وهو « حسب رأي الشاعر الآخر (ابن شهيد) من المنى وكفى » :

.. وكان الشاعر ابن شهيد هذا ، ذات يوم مع جماعة من الأدباء عند القاضي ابن ذكوان ، فجيء بباكورة باقلاء ، فقال ابن ذكوان : لا ينفرد بها الا من وصفها .. فقال ابن شهيد : انا لها .. وارتجل :

ان لآليـك أحدثت صلفا
فاتخذت من 'زمرد صدفا
تسكن ضراتها البحور وذو
تسكن للحسن روضة أنفا

(٤) بدائع البدائه ص ١٩٥ و ١٩٦ .

هامت بلحف الجبال فاتخـذت
 من سندس في جناها 'لحفا
 شـبهتها بالثغـور في لطف
 حسبك هذا من رمز من لطفها
 حاز ابن ذكـوان في مـكارمه
 حدود كعب وما به 'وصفا
 قدم در الرياض منتخبـا
 منه لأقراس مدحه علفا
 أكل ظـريف وطعم ذي أدب
 والقبول يهـواه كل من ظرفا
 وخص فيه شـيخ له حسب
 وكان حـسبي من المنى وكفى(٥)

وهكذا رأينا الشعر يمعن هناك في ذم الفول حتى يجعله أكل
 البقر كالقريضيل ، ورأيناه هنا وهو ممدوح محبب للشعر فهو
 أكل الظرفاء وطعم الأدباء . والله في خلقه شؤون ..

كافور الأخشيدي في صورته الحقيقية

شومت قصائد المتنبي وجه سيرة كافور الأخشيدي ، فتركته
 أشبه بالحبالي في الضخامة والحيرة في تصرفاته ، وفي كربه وبرمه
 بالحياة ، وجعلته جهولا متسلطا لا يدري ما هو الاتجاه الحسن ،

(٥) بدائع البدائه ص ٣٠٣ .

ولا التوجيه المستحسن . وجعلته أبكم صموتا لا يعي ما يقول :
ويقول ما لا يعي .. الى آخر تلك الصورة البشعة الكاريكاتورية
التي ركز المتنبي رسمها في اطار سميك من الهزل والهجاء المحض
المشوب فيه نار الشتم ، بزمهرير الاستخداء وخريف اللؤم .

تلك هي الصورة المهزوزة - الكاريكاتورية - التي خلقتها
أشعار المتنبي لشخصية كافور في أذهان قراء شعره المكين الأسر
المتين ، ذي التأثير القوي الساحر ..

أما صورة كافور الحقيقية التي خلفها كتاب السير والمؤرخون
فهي على العكس من تصوير المتنبي له .. الذي بني على الهزء
به ونفي كل فضيلة عنه وألصق كل رذيلة به .. ترسمه ريشة
المؤرخين على أنه حاكم ذكي ألمي وعالم أديب ذو معارف واسعة
وذو أدب نفسي عميق ، وذوق سليم ، ومكانة في نفوس شعبه
عظيمة ..

والقصة التالية التي رواها ابن ظافر تؤيد هذا المفهوم كل
التأييد : فقد ورد في « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر أن
أبا اسحاق النجيري جلس عند كافور الأخشيدي ، فدخل عليه
أبو الفضل ابن عياش فقال : « أدام الله أيام مولانا » وكسر ميم
« أيام » فتبسم كافور الى أبي اسحاق ، فقطن لذلك ، وقال
مرتجلا :

لا غرو . ان نحن الداعي لسيدنا
وغص من دهش بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابتة
بين الأديب وبين القول بالحصر
وان يكن خفض « الأيام » من دهش
في موضع النصب ، لا من قلة البصر
فقد تفاءلت من هذا لسيدنا
والقال مأثوره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب
وأن دولته صفو بلا كدر
فأمر له بثلاثمائة دينار ، وللنجيمي بمائتين (٦) .



الانسان الآلى

من ذا يستطيع قبل وقوفنا على الكثير من تراث أسلافنا
الأدبي والعلمي أن يزعم أو يدعي في كتاب مطبوع أو صحيفة
سيارة أن « الانسان الآلى المعروف » بالروبوت هو في أصله
وواقعه واستخدامه عربي المولد والمنشأ والاختراع ؟ .. وليس
بغربي من هذا كله في قبيل ولا في دبير ..

(٦) بدائع البدائت ص ٣٥١ و ٣٥٢ .

ان تراثنا الأدبي احتفظ لنا بجوهر هذه الحقيقة بين قماطره
حتى رأيناها عياناً فيه بأخرة .. وبعد ايدان شمس الحضارة
الغربية بالأفول .. ففي كتاب بدائع البدائيه هذا النص المسلسله
رواته :

« أنبأني الشيخان تاج الدين بن اليمى الكندى ، وقاضى
القضاة جمال الدين أبو القاسم ابن الحرساني اجازة ، عن
الحافظ أبي القاسم ابن عساكر ، قال : وقد ذكر ابراهيم بن سعيد
الاسكندري المعروف بالسديد ، وذكره لنا أبو عبد الله بن المحلى
فيمى لقيه من أهل الأدب ، قال : كان صاعد قد عمل شخص
حديد ينفخ النار ساعات ، فأراد السديد اختباره كما يجب ،
فأطفأ النار ، فقال صاعد بديهاً :

نار تيممها السديد فـردـها
برداً وكانت قبل وهي جـمـيم
فكأنمـا المفتاح آية ربه
وكان ابراهيم ، ابراهيم (٧)



« الزركالش » و « كان وكان »

« الزركالش » و « كان وكان » - نوع قديم من الشعر

(٧) بدائع البدائيه ص ٢٨٢ .

العامي الملحون كان معروفاً قديماً بمصر بالاسم الأول ، وفي العراق بالاسم الثاني .. ومنه قول الشاعر :

النار بين ضلوعي

ونا غريق في دموعي

كُنِي فتيله قنديل

أموت غريق وحريق

وقد أخبر ابن ظافر بعض أصحابه من المصريين بأن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون : الزركاش ، ويسميها العراقيون كان وكان (البيتين السابقين : النار بين ضلوعي الخ) .. وكان عنده القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحباب ، والقاضي المهذب ابن الزبير ، فتقدم إليهما بنظم معناه ، فصنعا يديها .. كل واحد منهما ما أورده ابن ظافر في كتابه (٨) .



غواة الأدب

« غواة الأدب » .. هذه الصيغة كنا نحسب أنها من «مولدات الأدب الحديث» .. ولكننا لما اطلعنا على ما قاله علي بن ظافر في كتابه بالقرن السادس الهجري عرفنا أنها قديمة ومما ولدته الحضارة العربية القديمة .. « قال علي بن ظافر : 'روي أن الأعز أبا الفتوح ابن قلاقس ، و 'نشو الملك ' علي بن مفرج بن

(٨) بدائع البدائنه ص ٢٤٩ .

المنجم اجتماعاً في منار الجامع ليلة فطر ، ظهر بها الهلال للعيون ،
وبرز في صفحة بحر النيل كالنون ، ومعهما جماعة من « غواة »
الأدب الذين ينسلون من كل حذب « الخ .

فلنتأمل كيف استعمل ابن ظافر عبارة : (غواة الأدب) في
المعنى الذى يستعملها فيه أدبنا اليوم .. ولنعرف أنها قديمة
وليست من بنات عصرنا الحالى كما كنا نتخيل ..



الشحنة

والشحنة : كما ورد في «القاموس المحيط» وغيره من المراجع
اللغوية هي : (بالكسر) : ما يقام (٩) للدواب من العلف الذى
يكفيها يومها وليلتها .. رفي البلد (من فيه الكفاية لضبطها من
جهة السلطان) (مادة شحن) وكان هذا اللقب مستعملاً في
القرن السادس والسابع لمن أصبح حديثاً يسمى « مدير الشرطة
العام » أو « مدير الأمن العام » .. وربما كان مأخذ هذا اللقب
'لغوياً' من (الشحنة) بمعنى ما يقام (٩) للدواب من العلف الذى
يكفيها يومها وليلتها .. اذ معنى ذلك تأمينها من الجوع الذى اذا

(٩) بدائع البدائه ص ٢٥٨ .

ربما كانت صحة العبارة : « ما يقدم » .. والله أعلم .

تبركت معه تختل موازين قواها المادية والمعنوية وتنهار .. فمدير الأمن العام .. ولنسمه الآن هكذا : مهمته ضبط موازين أمور البلاد اذا كان معهوداً اليه تحقيق أمن البلاد ، أي موازين أمور البلاد اذا كان عهد اليه تحقيق أمن بلاد عديدة وضبطها من التفكك والاختلال الأمني الذي عليه عماد حياة البلاد وازدهارها.



وقد كنت قرأت هذه الصيغة في كتاب « رحلة ابن جبير » وغيره ، وكنت أبحث عن مدى بقاء هذه الصيغة بمعناها المذكور ، فيما بعد ذلك وبخاصة في وقتنا الحاضر وما قبله .. فما عثرت في الكتب الحديثة على مدير شرطة أو أمن عام في أي بلد عربي اسلامي أو بلدان عربية اسلامية يلقب فيما بعد بهذا اللقب .. فعلمت أن « الانقراض » كما يعرفه البشر والحيوان كذلك يعترض الكلمات اللغوية فتستعمل كلمة ما أو كلمات ما في زمن ثم يعرفها الانقراض فتبيد من الوجود ، وتصبح « أثرية » محفوظة في متاحف المراجع اللغوية التي تحرص على بقاء مومياها محنطة في متاحفها أبد الدهر ، فلربما يحين وقت تنال (البعث) فيه أو لربما تجيء في مرجع قديم فيجدها باحث في تاريخ الأدب أو اللغة في مكانها من المتحف اللغوي .. فيعرف بمعناها الجليل الحاضر والأجيال المقبلة .

ومن المؤكد أن صيغة « الشحنة » كانت مألوفة الاستخدام

في معنى « مدير الشرطة » فقد روى ابن ظافر عن أبي الفرج
 « أن شحنة بغداد كسر نبينداً كثيراً حتى ملأ الطريق ، فمر به
 — أي بالنبيند المكسور — بكر بن خارجة ، فلما رآه جلس يبكي ،
 فمر عليه بعض أصحابه فسأله عن سبب بكائه ، فقال بديها :

يا لقومي لما جنى السلطان
 لم يكن للذى أهان هوان
 صبها في الطريق من حلب الكر
 م عقاراً كأنها زعفران
 صبها في مكان سوء لقد أد
 رك السعود ذلك المكان (١٠)

وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن ابن جبير استعملها في هذا
 المعنى برحلته المطبوعة مراراً وتكراراً ، وهي التي كتبنا عنها وعن
 صاحبها كتاباً جعلناه باسم : « مع ابن جبير في رحلته » وقد طبع
 ونشر كما قدمناه قبل هذا ..



بيت سيار قائله مجهول

ما أكثر هذه الأبيات السائبة في أفواه الناس شرقاً وغرباً
 وهم لا يعرفون مصدرها ولا اسم قائلها .. ولكنهم يتداولونها
 بينهم كالكرة بين أيدي الصبيان . ومن هذه الأبيات قول الشاعر:

(١٠) بدائع البدائه ص ٢٣٩ .

أقام يجهد أياماً رويته
وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فهذا البيت يعتبر بحق من أشهر الأبيات التي يتكرر دورانها
على السنة كثير من الناس في كل مكان تقريباً .. وأغلبهم
لا يعرفون قائله .. ولا عصره .. ولا شيئاً عنه .. وقد روى لنا
ابن ظافر قصة هذا البيت وزميله الذي يسبقه في النظم والقول
وهو :

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له
أو كاد يحرقه من فرط اذكاء

وبعده مباشرة :

أقام يجهد أياماً رويته
وفسر الماء بعد الجهد بالماء

تقول القصة التي تولد منها البيتان المذكوران آنفاً :
(مضى الوجيه علي بن الذروي ، والنجيب هبة الله بن وزير
في جماعة الى الحمام المعروف بأبي فروة ، فجرى بينهما تنازع
أدى الى تناكر فضيلة الأدب ، ثم تراضيا بأن يحكم بينهما
الشريف المعروف بأنكدودة ، فحكم بأن يصنعا قطعتين في صفة
الحمام على البديهة ، ثم يقع التفضيل بينهما ، بقدر التفاوت
بين القطعتين ، فصنع ابن الذروي بديهاً :

ان عيش الحمـام عيش هنيء
غير أن المقام فيه قليل

جنة 'تكره الإقامة فيها
وجحيم يطيب فيه الدخول
فكان الغريق فيه كليم
وكان الحريق فيه خليل

وصنع ابن وزير بعد بطاء :

لله يوم بحمام أقيمت به
والماء من حوضها ما بيننا جار
كانه فوق شفاف الرخام بها
ماء يسيل على أثواب قصار

فانتقد عليه الجماعة تشبيهه الماء بالماء ، واستبردوا ما أتى
به ، فقال ابن الذروي :

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له
(البيتَين المارين أنفا) (١١)

ومن هذه القصة ندرك اسم من قال البيت المقدم ..



وبالمناسبة أذكر أنني كنت قرأت بيتاً آخر نسيت قائله أيضاً
.. وفيه تشبيه صريح للماء بالماء أكثر مما هو صريح في بيتي
علي بن الذروي .. وذلك قول ذلك المتشاعر المهزوز :

(١١) بدائع البدائنه ص ٢٥٩ و ٢٦٠ .

كأننا والماء من حولنا
قوم جلوس حولهم ماء



وهناك أيضاً قصة بيتين آخرين هما أشهر من نار على علم .. ومع ذلك أجزم باختفاء اثر اسم قائلهما عن أذهان الكثيرين من رواتهما الذين يرددونهما في مناسبة قولهما البليغ أثناء أحاديثهم عن الحياة ومفارقاتها وأحوالها الاجتماعية في كرمها وسخائها ، وفي شحها وندرة عطائها ، على الرغم مما فيها من مبالغة وغلو منكبين شرعاً وعقلاً والبيتان هما :

لئن جاد شعر « ابن الحسين » فانه
يجود العطايا واللها تفتح اللها
تنبأ عجباً بالقـريـض ، ولو درى
بانك تـروي شعره لتألها

والقصة المشار اليها تقول : « جلس المعتمد بن عباد يوماً ، فأنشد بعض جلسائه قول أبي الطيب :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة
أثاب بها 'معيي المطي ورازمه

فاستبدعه المعتمد واستحسنه ، وجعله أبدع ما للمتنبى وأحسنه ، فارتجل عبد الجليل بن وهبون المرسى : (لئن جاد شعر ابن الحسين) (البيتين السابق ذكرهما آنفاً .. فاستحسن

المعتمد (بيتيه) وأمر له بمائتي دينار (١٢) .



منارة الاسكندرية في شعر البديهة

من معالم الاسكندرية العتيقة التي نالت حظها في كتب العلماء والمؤرخين والرحالين والشعراء هذه المنارة الشامخة المشرقة التي تهدي السارين في البحر الأبيض المتوسط الى مدينة الاسكندرية عبر الضباب المتكاثف والأمواج المتصاعدة والليل البهيم .

ومن شعر البداة في هذه المنارة في أواخر القرن السادس الهجري نروي لك خلاصة حكاية مشهورة أوردها لنا علي بن ظافر في كتابه « بدائع البدائ » : وذلك أن الشاعرين الصديقين الحميمين : ابن قلاقس ، وأبا الحسن علي بن الذروي ، طلعا الى هذه المنارة فاقترح ابن قلاقس على ابن الذروي أن يصف المنارة فقال بديها :

وسامية الأرجاء تهدي أبا السرى

ضياء اذا ما حندس الليل أظلم

(١٢) بدائع البدائ ص ٣٦٨ .

لبست' بها 'برداً من الأنس ضافيا
فكان بتذكّار الأحبة معلما
وقد ظللتني من ذراها بقبة
'الاحظ فيها من صحابي انجما
تغيّلت' أن البحر تعتي غمامة
وأني قد خيمت' في كبد السما

فحين رأى الأعز ما أتى به ، اشتد سروره وفرحه ، وقال
يصفها ويمدحه :

ومنزل جاوز الجوزاء 'مرتقبا
كأنما فيه للنسرين أوكار
راسي القرار وسامي الفرع في يده
للنسون والنور أخبار وآثار
أطلقت' فيه عنان الفكر فاطردت
خيل لها في بديع الشعر مضمّار
ولم يدع حسناً فيه « أبو حسن »
الا تحكم فيه كيف يختار
حلّى المنارة لما حلّ ذروتها
بجوهر الشعر بحر منه زخار

ما زال 'يذكي بها نار الذكاء الى
أن أصبحت علما في رأسه نار(١٣)

وواضح أن البيت الأخير من أبيات الأعز مقتبس من الشطرة
الأخيرة من قول الخنساء رضي الله عنها :

وان صخرأ لتأثم الهداة به
كانه علم في رأسه نار



(١٣) بدائع البدائنه ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

الفصل الثامن

نماذج من نقد ابن ظافر

ليس ابن ظافر - في كتابه - مجرد كاتب جماع ، لا يفرق بين غث وسمين ، انه ذو دراية واعية ، لكل ما يدونه ، فان عقله الكبير ليختزن طاقات قيمة من ألوان الشعر الراقي قديمه ومعاصره ، كما يختزن معلومات تاريخية رافدة لتلك الطاقات .. وهو يجيد الاختيار .. فأغلب شعر البدائه الذى رواه جيد منسجم ، وجذاب .. وتسميته لكتابه باسم « بدائع البدائه » هي في نفسها تسمية فنية موفقة جاءت في محلها برغم ما حوته من ظلال الجناس . أما أغلب نثره فهو نثر مسجع لا يخلو من تكلف ، سار فيه مسيرة معاصريه من أهل القرنين السادس والسابع الهجريين .. بل والخامس أيضاً .. وقد حالت تزاويق هذا النثر وزخرفاته دون التمتع بجمال معانيه ، على ان هذا النثر المسجع ليس شاملاً لكل نثره .. فهو انما يسجع اذا 'عني بأن يصف منظراً أو مشهداً أو مخبراً وصفاً أدبياً ممتازاً ، بمعنى الفن للفن .. أما اذا تحدث 'مخبراً فهو النثر المرسل السهل .

ونزعم فيما يلي هذا أن نقتطف لك من حديقة كتابه نماذج كشافة من نقده المتزن الهادف ، لتدرك أي أديب قدير ، كان علي بن ظافر الأزدي الخزرجي ..

وسنسوق لك المقتطفات التي اخترناها متسلسلة في عبارات موجزة ، أو « خلاصات مركزة » رأينا أن نتصرف فيها هكذا ضمناً لأن يأخذ كتيبنا هذا حجماً مناسباً منسجماً مع الكتيبات التي تصدرها المكتبة الصغيرة .. فنقول :

نقده لمناقضة عمر بن أبي ربيعة وابن اللهي

دارت مناقضة شعرية مرتجلة بين عمر بن أبي ربيعة
المخزومي ، والشاعر الفضل بن العباس اللهي (١) .. وروى هذه
القصة راويان ، هما أبو عبيدة وابن عائشة ، وكان مما تقاوله
الشاعران فيما يبدو قول أولهما :

أبناء مخزوم الحريق اذا
حركت نيرانه ترى ضرما
يخرج منه الشرار مع لهب
من حاد عن حره فقد سلما

وقد أجابه الآخر فقال :

هاشم بحر اذا همى وطما
أخمد حر الحريق واضطرما
واعلم - وخير' المقال أصدق'ه -
بأن من رام هاشما هاشما

وقد نفذ سهم نقد ابن ظافر الى صميم هذا الشعر اذ
أدركت شاعريته اللماحة ، ونقده الحصيف ما يشتمل عليه من
ضعف وركاكة هما دون مستوى الشاعرين فأرسل كلمته في نقد

(١) نسبة الى أبي لهب القرشي الهاشمي - وهو الفضل بن العباس بن
عتبة بن أبي لهب الشاعر وكان يعين الناس .. فاذا أجلت دراهمه ركب حمرا
له يقال له : شارب الريح فيقف على غرمائه ويقول :
بنى عمنا ردوا الدراهم انما يفرق بين الناس حب الدراهم
(عيون الأخبار لابن قتيبة ص ٦٥٦ طبعة مصر) .

هذه الحكاية فلسف بمتفجرها ما حوته من الشعر أيضاً ، قال :
« أحسب الحكاية مصنوعة لأن أشعارها ضعيفة » (٢) .
والواقع : يشهد بدقة نقد ابن ظافر لهذه الأبيات التي
اشتمل عليها حوار الشاعرين الملفوف في أسمال بالية من الركاكة
والتخاذل .



حتى المصادر ينقدها

روى عن أبي العباس المروزي أن المتوكل صنع بيتاً ،
وطالب فضل الشاعرة أن تجيزه ، والبيت هو :

لاذ بها يشـتـكي اليـها
فـلم يـجـد عـنـدهـا مـلاذ
فصنعت بديهة :

ولم يـزـل ضـارِعاً اليـها
تـهـطـل أجـفـانـه رذاذ
فـعـاتـبـوه فـزاد شـوقاً
ومـات عـشـقاً فـكـان مـاذاً ؟

فطرب المتوكل وقال : أحسنت وحياتي يا فضل (٣) ، وأمر

(٢) بدائع البدائ ص ٢٦ ط. القاهرة ، مع بعض تصرف .

(٣) أوردنا هذا النص لأمانة النقل والا فان القسم بعبارة الانسان من
الانسان لا يوافق عليه الشرع الاسلامي الحنيف .

لها بمائتي دينار وأمر عريب فغنت به .

وعقب علي بن ظافر على هذا الخبر فقال :

(قال علي بن ظافر : وقد ذكرنا البيت الأخير من بيتي
فضل في حكاية أبي السمرء في اجازة بيت بيت ، الا أن هذه
الحكاية أثبت رواية من تلك ، وهي من رواية أبي الفرج في
الأغاني) (٤) .



أبو السمرء والجارية العاشقة

الخبر الذى نقده علي بن ظافر في القصة السابق ذكرها
أنفاً هو :

(ذكر ابن القمي في كتاب « الديباجة » قال : دخل
أبو السمرء على نخاس ، فسمع بكاء من داخل البيت ، وقائلة
تقول :

وكنّا كزوج من قطا فى مفازة

لدى خفض عيش مونق معجب رغد

أصابهما ريب الزمان فأفردا

ولم أر شيئاً قطك أوحش من فرد

فقال للنخاس : أخرجها ، فقال : ان صاحبها مات ، وهي

(٤) بدائع البدائنه ص ١١٢ .

شعثة مغبرة . قال : فخرجت ، فقال لها : قولى فى معنى هذا ..
قالت : أى معنى ؟ قال : فى معنى هذين البيتين اللذين تمثلت
بهما ، فقالت :

وكنّا كفصني بانه وسط روضة
نشم جنى الجنات فى عيشة رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطع
فيا فردة باتت تحن الى فرد !

فكتب الأمير أبو السمرء الى (٥) عبد الله بن طاهر بخبرها ،
فكتب : ان أجازت هذا البيت فاشترها ، وهو :

بعيد وصل بديع صد
جعلته فى الهوى ملاذا

فقالت مسرعة :

فعاتبوه فزاد شوقا
فمات عشقا ، فكان ماذا ؟

فاشترها أبو السمرء فمات من الغد (٦) .

وهنا نتساءل : هل لبّيت أحمد شوقي المعروف الذى تتابعت
فيه الفاءات فى وصف موقف مضاد لهذا الموقف علاقة بهذا
البيت من ناحية الاقتباس ؟

والبيت مشهور وهو :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

(٥) حرف (الى) زُدت من عندى مراعاة لسياق الكلام .
(٦) بدائع البداة ص ٩٣ و ٩٤ .

يشك في وجود مجنون بني عامر

يبدو من النبأ الوارد فيما بعد أن علي بن ظافر متحرر في آرائه الأدبية ، فها هو ذا يروي لنا حكاية من حكايات مجنون بني عامر ، أو مجنون ليلى كما يسمى أيضاً ، فيستهل الحكاية باطلاق سهام الشك والارتياب في وجود « بطل الحكاية » على قيد الحياة تاريخياً .. واليك النص في هذا الشأن :

(ويروى - ان صح وجود مجنون بني عامر - أنه لما تزوجت ليلى عظم ذلك عليه ، واشتد همه وحزنه ، وأراد ابن عم له سفراً ، وكان طريقه على منزل ليلى ، فأتاه المجنون ، وقال له : اذا مررت على منزل ليلى ، فارفع صوتك بهذا البيت قائلاً :

أما وجلال الله لو تذكرينني
كذكرك ما نهنت للعين مدمعاً

فلما بلغ منزلها صنع ما طلبه منه ، فخرجت ليلى اليه ، وقالت :

بلى وجلال الله ذكرا لو انه
تضمنه صلد الصفا لتصدعا

وقد تعقب ابن ظافر هذا الخبر فنقده ونقضه من أساسه ، فقال :

« قال علي بن ظافر : والصحيح أن هذين البيتين من قصيدة للصمة القشيري ، ولكنني نقلت هذه الحكاية من كتاب « الأجوبة »

للقيمي» (٧) .

وأعقب أيضاً على نقد ابن ظافر بأن شكه وتشكيكه في وجود
مجنون ليلي لم يكن فيه نسيج وحده .. فله أمثال من النقدة ..



تزييف حوار شعري مرتجل

حدثنا ابن ظافر بأن الفقيه أبا محمد عبد الخالق النسكي
كتب أن بشاراً قال لعنان : جارية الناطفي ، مداعباً :

عنان يا منيتي ويا سـكـنـي
أما تريني أجـول في سـكـك
حرمت منك الوفا معذبتي
فـعـجـلى بالسـجـل من صـكـك
اني ورب السـمـاء مجتهد
في حل ما قد عقدت من تكـك

فأجابته :

لم يبق مما تقول قافية
يقولها قائل سـوى عـكـك

فقال مجيباً لها ، بيتاً لا يخلو من البداعة (ترفعنا عن نقله)
وهو في نفس الوزن والقافية .

(٧) بدائع البدائع ص ٢٢ .

وقد تعقب ابن ظافر هذا الحوار الشعري البدهي فقوضه
من أساسه ، اذ قال :

« قال علي بن ظافر : عنان لم يدركها بشار ، وانما كان
يشاغبها أبو نواس .. ولهما في مثل هذا أخبار كثيرة » .. وأضاف
ابن ظافر الى ذلك قوله : « وهذه القافية مما يعايب به » (٨)
يعني أنها من القوافي التي 'يعجّز' بها الشعراء ، أو نحو هذا
المعنى) .



شك في بيت ينسف محاوره شعرية بدھية

وذكر ابن ظافر أنه : « روى أن أبا نواس دخل على جارية
الناطفي « عنان » في بعض أيام الربيع ، فقال أجيّزى .
كل يوم من أقحوان جديد
تضحك الأرض من بكاء السماء
فقال مسرعة :

فهو كالوشي من ثياب عروس
جلبتها التجار من صنعاء

وقد تعقب ابن ظافر هذه الرواية فقال : (والبيت الأول
أظنه لابن مطير من قصيدة ، الا أنه منسوب في الموضع الذي نقلت

(٨) بدائع البدائنه ص ٣٩ .

منه الى أبي نواس ، فأوردته كما وجدته (٩) .

وبهذا الشك العلمي المستند الى الاثبات المذكور .. قوض ابن ظافر سائر بناء هذه الرواية .. وصيغة : (أظن) هنا بمعنى « أعتقد ، وأعلم » .. وقد وردت هذه الصيغة ومشتقاتها في القرآن المجيد بمعنى (العلم واليقين) في آيات كريمة .. كما وردت في أخرى بمعنى (الشك وعدم اليقين) .



نقد دقيق من ابن ظافر لقصة عقيل بن علفة

أسهب ابن ظافر في حديثه عن قصة بني 'عقيل بن علفة المُرِّي . وتتضمن هذه القصة شعراً حوارياً مرتجلاً ، مع ابنه . فذكر رواية أبي الفرج لهذه القصة ورواية ابن قتيبة لها في كتاب الأشربة ، حيال ما قاله عقيل بن علفة بعد أن رماه بنوه بسهم شل فخذه ثم ضربه لابنته الجرباء بسوط . وقوله عقب شلهم لفخذه بالسهم :

ان بني زملوني بالدم من يلق آساد الرجال يكلم
شنشنة أعـرفها من أخـزم

وقد نقل لنا ابن ظافر ما ذكره أبو الفرج الاصفهاني في

(٩) بدائع البدائ ص ٩٢ . وقد تقدم أنفا نفيه للقاء أبي نواس لعنان ، ونسبة هذا اللقاء لبشار .

(الأغاني) عن هذا الرجز فى حكاية أخرى تتصل بيزيد بن عياش التغلبي والربيع بن نمير ، وذلك أن عقيل بن علفة غدا على أفراس له عند بيوته ، فأطلقها ، ثم رجع فوجد بنيه وأمه مجتمعين . فشد بسيف (على أحدهم) ، فحاد عنه وتغنى بقوله :

قفي يا ابنة المُرِّي نسالك ما الذي
تريدين فيما كنت منيتنا قبل ؟
نخبرك ان لم تنجزى الوعد أننا
ذوا خلّة لم يبق بينهما وصل
فان شئت كان الصّوم ما هبت الصبا
وان شئت لا يفنى التكارم والبذل

فقال عقيل : يا ابن اللخناء (أي النتنه) متى منتك نفسك هذا ؟ وشد عليه بالسيف - وكان عملس أخاه لأمه ، فجال بينه وبينه ، فشد على عملس بالسيف ، فرماه 'علقه' بسهم ، فأصاب ركبته ، فسقط عقيل ، وجعل يتمعك فى دمه ، ويزمجر بالرجز المتقدم ، وبعده :

من يلقى أبطال الرجال يكلم ومن يكن ذا أود يقوم (١٠)

ثم عطف ابن ظافر على ذلك بقوله : « قال المدائني :
و « أخزم » فحل لرجل كان منجياً ، فضرب فى ابل رجل آخر ،

(١٠) هذا الرجز من شعر الاعتراف بما حدث من العراك بين الخصوم .

ولا يعلم صاحبه ، فرآى بعد ذلك من نسله جملا : فقال :
« شنشنة أعرفها من أخزم » فأرسلت مثلا .

ثم نقل ابن ظافر رأي الحريري في تفسيره لبعض مقاماته
بأن « أخزم » جد حاتم الطائي ، وأن جده الأدنى سعداً ، ضربه
له مثلا .. لما رأى من تخلقه بأخلاقه وآثاره ، و « الشنشنة » :
الشَّبه .

ولكن ابن ظافر رفض قبول رأي الحريري هذا في المثل
المشار إليه آنفاً فقال : « والصحيح ما ذكره أبو الفرج » .

وبعد ذلك أضاف ابن ظافر اللثام عن سبب قيام علفة (١١)
بما قام به حيال أبنائه وابنته من شتم وعراك وما الى ذلك ..
فقال : « وهذه الفعلة من علفة (١١) كانت سبب تفريق عقيل
أولاده وطردهم عنه .. وكانوا يقصدون أذاه يانشاد الغزل
بحضرة أخواتهم لأنه كان مفرط الغيرة مبالفاً في الظنة ، شديد
الرقاعة - أي الحمق - وهم من شياطين العرب » (١٢) .



(١١) يبدو أن هنا سقطا هو (عقيل بن علفة) ضمنا لانسجام الكلام
وصحته .

(١٢) بدائع البدائه ص ٢١٣ - ٢١٦ .

تعليق كشاف ، وملاحظة دقيقة

قال ابن ظافر : (وحكي أن علي بن الجهم قال : كنت بين يدي المتوكل وقد أتاه رسول برأس اسحاق بن اسماعيل ، فقام علي بن الجهم يخطر بين يدي الرسول وهو يرتجز ، أهلاً وسهلاً بك من رسول جئت بما يشفي من الغليل

برأس اسحاق بن اسماعيل

فقال المتوكل : « التقطوا هذا الجوهر لا يضيع » .



تعقب ابن ظافر في كتابه « بدائع البدائه » هذه الحكاية فقال : « قال علي بن ظافر : اسحاق بن اسماعيل هذا مولى لبني أمية ، خرج بتفليس ، فى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، حين وثب أهل أرمينية بعاملهم ، من جهة المتوكل يوسف بن محمد بن يوسف .. وتولى قتل اسحاق هذا يفا الكبير فى سنة سبع وثلاثين (ومائتين) ولم يكن بين اغتباط المتوكل بعلي وشعره ، هذا الاغتباط ، وبين نفيه الا نحو سنة ، فانه نفاه الى خراسان فى سنة ثمان وثلاثين (١٣) « بعد المائتين » .

وأقول تعليقاً على هذا الخبر وعلى تعليق ابن ظافر عليه ..

(١٣) بدائع البدائه ص ٣٤١ .

« وهكذا أضاعت السياسة الجوهر الذي كانت دعت منذ عام فقط
الى الحرص على التقاطه قبل أن يضيع ... فأضاعت رأس المال
جوهرأ وريعا ... والسياسة دائما قلب ...



هل هو اقتباس أم اختلاس ؟

ويحدثنا ابن ظافر بالأبيات التي قالها على البديهة ،
أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدرامي في «شمعة»
كانت تضيء له ولبعض أصحابه ذات ليلة ، وقد أفضى حديثهم
عنها الى وصفها شعراً بدهياً فقال فيها أبو الفضل أبياته التي
آخرها :

وأت على ما قد تقاسين من أذى
قصورك في نار ونارى فى صدري

ونرى ابن ظافر يعلق على هذا البيت بقوله :
(قال علي بن ظافر : وهذا مثل قول الأعمى التطيلي في
شمعة :

بأية ما تبكي وفى النار صدرها
وقد جمدت عيناى والنار فى صدري(١٤)



(١٤) بدائع البدائى ص ٣٦٤ .

وأقول : تعليقاً على بيتي أبي الفضل ، والتطيلي ، لاح لي
أن المعنى فى كلا البيتين واحد وان اختلفت عباراتهما . فهل
يعتبر ما نظمه أبو الفضل اذا كان متأخراً مختلساً أو مقتبساً من
قول التطيلي اذا كان قبله ؟.



نقد لغوي دقيق

استعمل الشاعر أبو الفضل ابن حسداي ، صيغة « النينان »
جمع « نون » بمعنى الحوت ، في قصيدة عصماء ارتجلها في وصف
موكب أحمد بن المؤتمن بن هود الجذامي صاحب سرقسطة (من
بلاد الأندلس) والثغور (بالأندلس) .. وقد سار موكب أحمد
ابن المؤتمن هذا قُدماً على سفن تمخر عباب النهر الجميل ،
تحف بزورقه الذي كان فيه معه الشاعر .. من جانبه ، سفن
مصفوفة منتظمة الاصطفاف في مسيرتها الهادئة ، الى جانب
بعضها .. وسفن أخرى متناثرة تنائر الدرر على حصباء من
صعيد فضي متلامع .. وكان أحمد بن المؤتمن في مسيرته النهرية
هذه ، في « رحلة عمل » .. كان يتفقد بعض معاقله بساحل ذلك
النهر .. وها نحن أولاء نقدم لك القصيدة (البدهية) التي
جادت بها قريحة الشاعر الفحل (ابن حسداي) .. وهي من
الشعر العمودي الأصيل الموزون المقفى ، مما يضع أصابعنا على

مدى سهولة هذا اللون من الشعر ومرونته بالنسبة لشعراء
العرب . ومن شأن ذلك أن يقوض زعم خصوم هذا الشعر .
قال ابن حسداي وما أجمل ما قال :

لله يوم أنيق واضح الغرر
مفضض 'مذهب' (١٥) الأصال والبكر
كأنما الدهر لما ساء ، أعتبنا
فيه بعثبي وأبدى صفح معتذر

★ ★ ★

نسير في زورق حف السفين به
من جانيبه بمنظوم ومنتشر

مدّ الشراع به نثراً على ملك
بذ الأوائل في أيامه الآخر !

هو الامام الهمام « المستعين » حوى
علياء « مؤتمن » في هدي (مقتدر)

تحوي السفينة منه آية عجبا
بحر تجمع حتى صار في نهر

(١٥) صيغة « مذهب » بضم الميم وسكون الذال من الإذهاب - بمعنى
طلاء الشيء بالذهب - فصيحة ، وهى مثل صيغة « مذهب » بفتح الذال
وتشديد الهاء وفتحها - فى الفصاحة (راجع مادة ذهب فى القاموس
المحيط) .

تثار من قعره (النينان) مصعدة
صيداً ، كما ظفر الغواص بالدرر

★ ★ ★

وللندامي به عب ومرتشف
كالراح يعذب في ورد وفي صدر
والشرب في ود مولى خلقه زهر
يذكو وبهجتـه أبهى من القمر

★ ★ ★

ومع روعة هذه القصيدة فانها لم تحل دون عمق ابن ظافر
فى نقده اللغوي لها ، فانه نقد الشاعر ابن حسداي فى جمعه
ل (نون) على (نينان) .. فقال معقّباً وشارحاً وجهة نظره ،
متوسّعاً فى الشرح والتحليل ، على غير عادته الغالبة عليه فى
مثل هذا الموقف :

(قال علي بن ظافر : قوله : « نينان » غير معروف ، فان
« نونا » لم يجيء جمعها (على) « نينان » . وقد كان سيبويه
لحن بشار بن برد فى قوله ، فى وصف السفينة :

تلاعب « نينان » البحور وربما
رأيت نفوس القوم من جريها تجري

فغيره بشار ب « تيار البحور » .. وقد قال أبو الطيب
يصف خيلا :

فهن مع السيدان فى البحر عسل وهن مع « النيان » فى البحر عوم»١٦«



وأقول بمناسبة ما ذكره ابن ظافر من « تلحين » سيويه لبشار فى جمعه صيغة « نون » على « نينان » ورضوخ بشار - على عنجهيته وصلابته - لرأى ناقده فعدل بيت شعره الى ما ليس بلحن ، على ضوء ذلك النقد ، أقول :

« ليت الذين يصرون على الصيغ العامية الملحونة فى كتاباتهم وخطاباتهم وخطبهم ومنشوراتهم وهم يعلمون - ليتهم يتأملون هذا الصنيع من سيويه وبشار فلا يصرون على كسر جيم ('جدة) المعلوم بالبداهة اللغوية أن صحتها الوحدة هي ضم الجيم ليس غير اذا كان المراد بها هو المدينة القائمة على شاطئ البحر الأحمر الشرقي بقرب مكة المكرمة .. فى ناحيتها الغربية .

هذا ولم 'يعف ابن ظافر المتنبيء من النقد المريع للانحراف اللغوي الذى وقع فيه أيضاً على جلالة قدره وتضلعه العظيم من اللغة العربية .. ولم 'تنجھ قوة بيانه العربي من تسليط ابن ظافر لتيار النقد عليه .. والهدف - كما هو معلوم - من هذا النقد اللغوي الجارح ومن كل نقد لغوي مماثل قديماً

(١٦) بدائع البدائه ص٣٦٨ .

وحديثاً هو ضمان سير موكب اللغة العربية في طريق فصاحتها
القويم ، حتى لا تضار بتيارات العامية والعجمة المنحرفة
فتبتلعها قليلاً قليلاً حتى تصبح فيما بعد أثراً بعد عين ،
لا قدر الله .

فَلْيَبْحَثْ هذه الحقيقة أولئك المتساهلون عن خلوص نية
أو عن غير خلوصها حيال ضرورة تقويم بيانهم في هذه اللغة
الكريمة التي هي أمانة لا يجوز التفريط فيها بحال من الأحوال
في عنق العرب والمسلمين أجمعين ، في مختلف الأزمنة والأمكنة .
فلظالماً ذابت لغات تحت طرقات الإهمال والخذلان والتساهل .
والله الهادي الى سواء السبيل .



قصة ابن خفاجة وابن أبي تليد

حدث ابن خفاجة قال : « خرجت يوماً بشاطبة الى باب
السمارين ابتغاء الفرجة (١٧) على خيرير الماء بتلك الساقية ،
وذلك سنة ثمانين وأربعمائة ، واذا بالفقيه أبي عمران بن أبي
تليد — رحمه الله — قد سبقني الى ذلك ، فألفيته جالساً على

(١٧) مع استعمال بعض المولدين لكلمة الفرجة بمعنى الفسحة
والاستجمام والتنزه فانها لم ترد في الفصحى بهذا المعنى فهي مولدة .

مصطبة دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ،
وجلست اليه متأنساً به ، فجري أثناء ما تناشدهنا ، ذكر قول
ابن رشيق :

يا من يمر ولا تمر	به القلوب من الحرق
بعمامة من خده	أو خده منها استرق
فكأنه وكأنها	قمر تعمم بالشفق
شغل الخواطر والجوا	رج والمسامع والحدق

فقلت له - القائل : ابن خقاجة ، والمقول له الفقيه أبو عمران
الشاعر وقد أعجب بها جداً ، وأثنى عليها كثيراً - : أحسن
ما فى القطعة سياقه الاعداد والاستنزال ، لكنه قد استرسل
فلم يقابل بين أطراف البيت الأخير ، والبيت الذى قبله ، فينزل
بازاء كل واحد منها ما يلائمه ، وهل يحسن أن ينزل بازاء قوله :
« واذا نطق » قوله : « شغل الحدق » وكأنه نازعني القول في أن
هذا غاية الجهد .. فقلت بديها :

ومنهف طاوى الحشا المعاطف والنظر
ملاً العيون بصورة	تليت محاسنها ...
فاذا رنا واذا مشى	واذا شدا واذا سفر
فضح الغزالة والنعا	مة والحمامة والقمر

فجن بها (١٨) .

وكدأب ابن ظافر فيما يرى من منقولاته أنه غير قويّم نراه
يوجه نقده اللاذع الى الجزء الذى يستحق إعادة النظر فى تلك
الأبيات .. فيقول : (قال علي بن ظافر : القطعة الأولى ليست
لابن رشيّق ، بل هي لأبي الحسين بن علي بن بشر الكاتب أحد
شعراء اليتيمة) (١٩) .



(١٨) ص ٣٧٧ و ٣٧٨ من بدائع البدائنه .

(١٩) المصدر السابق ص ٣٧٨ .

الفصل التاسع

أغلاط مطبعية في الكتاب المحقق

م-٦ رحلة في كتاب من التراث

كثيرة هي الأغلاط المطبعية الموجودة فى كتاب « بدائع
البدائنه » المطبوع بمصر والذى حققه الشيخ محمد أبو الفضل
ابراهيم .

وقد ساققتني بغية الوصول الى كنهها وألوانها الى أن
أستقصيها تقريباً وأضعها فى إطار البيان التالى ، وما أكثر
إغلاط المطابع مهما يُعَنّ بتصحيحها :

وقد وقع غلط مطبعي فى الصفحة (ج) س ٩ من كلمة
(التصدير) لمحقق الكتاب : وردت « الأفاكية » بالتاء المربوطة
بدلاً من الهاء .

وجاءت هذه الجملة : « بدائع البدائع » ص (ج) س ١٥
وصوابها : « بدائع البدائنه » اسم الكتاب .

وطبعت هذه العبارة : (ثم أطلقه وسرحه فى بهمة) -
(ص ١٨٩ س ٤) وصوابها : (ثم أطلقه وسرحه فى بهِمِهِ)
بهاء مربوطة .

وهناك (بهمي) وردت بفتح الميم .. والصواب كسرها
(ص ١٨٩ س ٤) .

كانما أحد وبهَمِي عيرا من القرى موقرة شعيرا
وقد حركت المطبوعة ، شين (نشزا) فى بيت زهير : (ص ١٨٩
س ١٣) :

على لاحب مثل المجرة خلفه
إذا ما علا نشراً من الأرض مهرق

والصواب تسكين الشين ليصح وزن البيت . وصيغة (نشز)
هذه ترد ، لغة ، محركة الشين وساكنتها ، وقد قدم القاموس
تسكينها على فتحها . ولكن وجودها فى البيت المذكور يستوجب
تسكينها مراعاة للوزن .

ووضعت المطبوعة المحققة صيغة (أجبل) بالعين المهملة
بعد الجيم التحتية ، بدلا من « أجبل » الصحيحة فى قول
ابن ظافر : (ثم أجبل : يريد الزيادة فلم يقدر) (ص ١٩١
س ٩) .. وأجبل ، هنا بمعنى عجز عن انشاء اضافة على ما قاله
من الشعر . والدليل على أن هذا المعنى والصيغة هما المقصودان
قول الشاعرة « ليلي » بنت حسان رضى الله عنه ، له : (كأنك
قد أجبلت) ؟ قال : نعم الخ .. وذلك فى الصفحة وعقب
السطر .

وزادت المطبوعة المحققة (واوا) لا لزوم لزيادتها ، لا معنى
ولا مبنى .. وذلك فى قول الشاعر :
وقد ملأ الأرض طرا بتيهه وبببرده
(ص ١٩٤ س ١٩) . ومحل الزيادة أول البيت .

وزيد فى الطبعة المحققة حرف الجر : « من » ثانية على
الصحيحة .. نورد فيها : (وتلوى تلوي الحيات من من جانبيه)
بتكرار « من » (ص ٢٠٩ س ٩ و ١٠) .

وحذف ضمير : (هم) فى البيت التالى :
ما بين ندمان ظـرا فى حين تخبرهم كياس

وذلك من الغلط المطبعي بدوب ريب (ص ٢٢٠ س ١٢) .

وكَسَرَ (تاء) (قاربت) المفتوحة ، خطاباً لرجل شاعر
كان الرشيد يحاوره فقال له : (قد قَارَبْتَ) (ص ٢٢٠
س ١٢) .

وضَمَّ فاء (نقصف) . ومن حقها السكون لأنها مجزومة
على أنها جواب لشرط محذوف . وكَسَرَ ميم (اليوم) مع أنها
مفتوحة لكونها اسم ظرف منصوباً . وذلك في قول الشاعر دعبل :
ومُنَرُوا نقصِف اليوم فاني بأئع خفي
(ص ٢٢١ س ١٦) .

واكتفى بضمة واحدة لصيغة «نقد» المنونة على الرفع في قوله :
(وهذا نقد ما كنت فطنت له) (ص ٢٤٢ س ٩) فتغير المعنى
بتغير الحركة ، فاستبهم المعنى على القاريء بسبب هذا الاكتفاء
بالضم عن التنوين الصحيح .

وفتحت عين (عِشاء) المكسورة غلطاً مطبعياً في قول ابن
المنجم الشاعر :
وعِشاء كأنما الأفق قيه لا زورد مرصع بنضار
(ص ٢٤٤ س ١٧) .

وحرفت عبارة : (استخدمت الليل بواباً) الى : (استد
خدمت الليل بواباً) (ص ٢٧٦ س ٩) .

وَوُضِعَتِ نَقْطَتَانِ عَلَى هَاءِ (الْفَقِيه) فَانْحَرَفَ الْمَعْنَى
الْمَقْصُودُ عَنْ مَسَارِهِ اللَّغَوِيِّ الطَّبِيعِيِّ الْمُرُومِ (ص ٢٩٧ س ١٠)
وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : (وَأَخْبَرَنِي الشَّيْخُ الْفَقِيه) .

وَحَذَفَتِ الطَّبْعَةُ ' الْمُحَقَّقَةُ ' كَلِمَاتٍ بِجَمَلَتِهَا تَرَكَ حَذْفُهَا
فِي الْمَقُولَةِ ثَغْرَةً مَفْتُوحَةً لَمْ ' تَمْلَأْ بِشَيْءٍ .. وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الْحَذْفِ
دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ أَخَذْنَاهَا مِنْهُ مَا وَرَدَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ
تِلْكَ الْعِبَارَةَ الْمُنْجِدَّةَ .. وَهَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ نَوْرَدَهَا لَكَ بِتَمَامِهَا
لَتَقِفَ بِنَفْسِكَ عَلَى مَوْضِعِ الثَّغْرَةِ أَوْ الْهُوَّةِ الَّتِي تَرَكَتْهَا الطَّبْعَةُ
مَفْتُوحَةً .. وَلَتَدْرِكَ الدَّلِيلَ الْقَائِلَ وَالْبَارِزَ عَلَى مَا كَانَ يَمْلُؤُهَا
قَبْلَ .. وَقَدْ وَضَعْنَا فِي مَكَانِ الْحَذْفِ نَقْطَةً لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ :

« بِالسَّنَدِ الْمُتَّصِلِ مِنَ الْمُؤَلَّفِ إِلَى أَبِي الْقَاضِي التَّنُوخِيِّ قَالَ
هَذَا : (' أَصْعَدَ أَبُو الْفَرَجِ الْبَيْغَاءُ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ
الْكِبَارِ ... يَمْتَدِّحُونَهُ ، فَأَخْرَجَ يَوْمًا خَازِنُهُ قَدْحًا مِنْ يَاقُوتٍ
أَزْرَقَ ، فَمَلَأَهُ مَاءً ، وَتَرَكَهُ يَتَشَعَّشَعُ . فَقَالَ لَهُ أَبُو الْفَرَجِ :
يَا مَوْلَانَا ! مَا رَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ! فَقَالَ : قُلْ فِيهِ شَيْئًا وَهُوَ
لَكَ . فَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ فِي الْحَالِ :

كَمْ مَنَّةً لِلظَّلَامِ فِي عُنْقِي
بِجَمْعِ شَمْلٍ وَضَمِّ مَعْتَنَقِ
وَكَمْ صَبَاحَ لِلرَّاحِ أَسْلَمْنِي
مَنْ فَلَاقَ سَاطِعَ إِلَى فَلَقِ

فعاظنيها بكراً مشعشة
 كأنها في صفائها خلقي
 في أزرق كالهواء يخرقه اللح
 حظ وان كان غير منخرق
 كان أجـزاءه مركبة
 حسناً ولطفاً من زرقة الحدق
 ما زلت منه منادماً لعباً
 مذ أسـكرتها المـدام لم تفق
 تختال قبل المزاج في أزرق الفجر
 وبعد المزاج في شفق
 أدهشها سكرنا فان يكن الصم
 ست حديثاً فذاك من فرق
 تغرق في أبحر المدام فيستنقذ
 ها شربنا من الغرق
 ونحن باللهو بين مصطبـح
 يمرح أمننا وبين مغتـبق
 فلو ترى راحتي وصـبغتـها
 في لونها في معصفـر شرق
 خلـت أن الهـواء لاطفـني
 بالشـمس في قطعـة من الأفق

فاستحسنها سيف الدولة ، فأعطاها اياه (ص ٢٩٧ و ٢٩٨) .

فالبعبارة التي وردت في آخر القصة المذكورة آنفاً دللتنا على
 ما حذف - طبعاً - في أوائلها .. فقد ذكرت نص قول راوي

القصة : (فاستحسنها سيف الدولة وأعطاه اياه) .. واذن
فالكلام المحذوف فيما سبق هو ما معناه : (أصعد أبو الفرج
الببغاء هو وجماعة من الشعراء الكبار الى سيف الدولة
يمتدحونه) الخ .. وقد وضعنا خطأً أفقياً تحت العبارة المحذوفة
من النص المطبوع كما تراه آنفاً .

وحرقت عبارة (فقال بديهاً) فى (ص ٣٠٨ س ٧) الى (فقال
بديهاً) . كما حرقت كلمة (وسيم) بالياء المثناة الى (وسيم)
بالباء الموحدة .

وحرف لفظ (أبي الخير) بالراء المهملة فى (ص ٣١٢) الى
(أبي الخيز) بالياء المثناة التحتية والزاي .. والدليل على هذا
التصحيح وارد نصاً فى ص ٣١٤ س ١ بهذه الأبيات :

أبو الخير أبي الخير فلا خير ولا مير
ضئيل ناحل الجسم ولكن كله ...

وجُعِلَت كلمة (روض) بالضاد المعجمة (روص) بالصاد
المهملة ص ٣١٦ س ١١ وحرقت عبارة (خَيْرُهُ) بهاء الضمير
المتصل بالفعل الماضي الى صيغة اسم (خيرة) من الخير (ص ٣٤٣
س) . وصحة العبارة المحرف بعضها : (ويقال أنه خَيْرُهُ
بينها وبين الوصف فاخترها نفياً للظنة عنه) .

وزاد حرف (من) الجارة فى عبارة وردت فى ص ٣٤١

س ١١ وطبع : (حين وثب أهل أرمينية بعاملهم من جهة المتوكل)
الخ .. كما كرر أيضاً حرف (في) الجارة في هذه العبارة :
(قال يزيد الرياضي في في كتابه في الأمثال) ص ٣٤٥ س ٤ .
وحرفت كلمة (أنبائي) بمعنى أخبرني .. الى كلمة أخرى
هي (أنبائي) جمع (ابن) مضافاً الى ياء المتكلم .. وهكذا
أصبحت (أنبائي) - (أنبائي) .

وحولت عبارة (انتهينا) الى عبارة أخرى هي (انتهيا)
ص ٣٥٠ س ١١ وشددت ياء الضمير بعد حرف الجر : (الي) في
محل لا لزوم ولا معنى لتشديدها. فقلب المعنى اذ حوله من
جراسم علم : (أبي العلاء) - الى جر ضمير المتكلم ، وبذلك
اختلف المعنى المنشود والمبنى المقصود من هذه العبارة : (كتبت
الي أبي العلاء المعري حين وافى بغداد) (ص ٣٦١ س ١٤) .

وحول هذا اللقب : (الدارمي) المعروف قديماً في علم أصول
الحديث النبوي - الى معنى ومبنى عصريين لا علاقة لهما بتاريخنا
الاسلامي القديم فجعله : (الدرامي) .. وذلك في عبارة وردت
في النص (ص ٣٦٤ س ٩) .

وأخل بوزن البيت الذي وردت فيه صفة (مذهب) هكذا :

لله يوم أنيق واضح الفرر

مفضض مذهب الأصال والبكر

وذلك بأن فتح ذال مذهب وشدد هاءها .. ومع صحة هذا
الوضع 'لغَوياً' فإنه يخل بوزن البيت لا محالة .. هذا الى أن

المراجع اللغوية تجيز تسكين الذال وتخفيف فتحة الهاء في كلمة « مذهب » . كما تجيز فتح الذال وتشديد الهاء فيها .. وسكون الذال هنا ضروري لاستقامة وزن البيت الذي هو من بحر البسيط . (ص ٣٦٧ س ١٨) .

وزيدت ألف بعد الزاي في هذه الكلمة « ورازمه » الواردة في آخر بيت للمتنبى :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة
أثاب بها 'معيي' المطي ورازمه

ص ٣٦٨ س ١٤ .

وكان هناك « حذف » مطبعي أو تصحيحي في البيت التالي من مرتجلات الوزير الشاعر أبي بكر بن عمار وهو يخاطب به الرشيد :

ما ضَرَّ أن قيل اسـحـاق وموصله
ها أنت وذئ حمص واسـحـاق

(ص ٣٦٩ س ١٦) .. فهنا سقط في أول الشطرة الثانية وربما كان أصلها : (ها أنت أنت وذئ حمص واسحاق) ..

وحذفت ألف لام الوصل غلطاً مطبعياً في « الزعفران » (بالصفحة ٣٧٠ س ٨) وجعلت عبارة (فكتب اليه) ... وهي مبدوعة بالفعل الماضي في المطبوعة كما تراه - جعلت هكذا : (يكتب اليه بديهاً) فاختل كل من المعنى والمبنى (ص ٣٧٤)

س١٣) وذلك لأن سياق الكلام يقتضي جعل الكلمة : (فكتب إليه) .. كما يتضح من مراجعة النص .

وجعلت كلمة « يتمنون » من الأمنية : (يتمنون) بنونين وهذا تحريف مطبعي لا غبار عليه .

وضمت الطبعة المحققة لام (قول) فى قوله : « فجرى أثناء ما تناشدنا ذكر قول ابن رشيق) والصواب الأكيد كسرهما لأنها اسم منصرف مضاف إليه (ص٣٧٨ س٣) .

وحُرِفَت كلمة (البازل) المعروف أن معناها اللغوي هو الجمل الفحل القوي وجمعها ('بزل) .. قال الشاعر :

**وابن اللبـون اذا ما لز فى قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس**

حُرِفَت كلمة (البازل) — بياء موحدة تحتية — .. بالنازل .. (بنون) بدل الباء ومعناه المعروف لغة هو الهابط ضد الصاعد (ص٣٨٢ س١١) ..

وكُـرِّرَ حرف (ثم) العاطف فى قوله : (ثم ثم جعل فى عمامته ريشة الخ) .. (ص٣٨٤ س١٧) ..

وحِذِنَتِ الرائ' من كلمة رشيق ، فضاع المعنى بسبب اختلال كتابة المبنى ، فنشر فى الكتاب المحققة طبعته :

مظهر للعيون ردفا مهيلا
وحشى ناحلا وقدا شيقا

والصواب : (وقدا رشيقا) (ص ٤٠٦ س ٦) .

وقد صنع مثل ذلك تماما فى كلمة القافية فى هذا البيت :

فقدونا تحت الدجى نتعاطى
من رقيق الآداب خمراً حيقاً

والصواب طبعاً : (خمراً رحيقا) بوضع الراء قبل حاء

(رحيق) .. (ص ٤٠٧ س ٢٠) .

وغيّرت صيغة (ريحاننا) بنونين بعدهما ألف الى صيغة
أخرى مغلوطه (ريحانتنا) بتاء فتون فالف .. وذلك فى هذا
البيت من نفس القصيدة المروية أنفأ بعض أبياتها (وهى من
نظم ابن ظافر) .

وكلمة (حكايات) جعلت تأؤها الأخيرة باء موحدة (ص ٤٠٧

س ١٤) .

وكلمة (البدائه) بعد (البدائع) جعلت هى أيضاً مختومة

بحرف العين ، مع أن الصواب الواضح هو طبعها بالهاء ، لأنها

جمع بديهة (ص ٤٠٧ س ٢١) .

وهذا كله من غلط المطابع الوفير فهو لا ينقطع مهما ' يبذل

من جهود فى سبيل تدقيقه وتحقيقه ، واصلاح تشويهااته الواسعة

الانتشار على آفاق صفحات مطبوعاتنا العربية الحديثة خاصة .

فهرس الموضوعات

الفصل	الموضوع	الصفحة
المقدمة	:	٣
الفصل الأول	: تقويم النثر الفني في عصر ابن ظافر	
	وما قبله	٩
الفصل الثاني	: أحد عيون الأدب العربي	١٧
الفصل الثالث	: أضواء على الكتاب وكاتبه	٢٧
الفصل الرابع	: منهج ابن ظافر في كتابه	٤١
الفصل الخامس	: أشعار من بدائع البدائ	٤٩
الفصل السادس	: بدائ أشعار ليست في مستوى البدائع	٨٩
الفصل السابع	: لقطات متناثرة من الكتاب	١١١
الفصل الثامن	: نماذج من نقد ابن ظافر	١٣٩
الفصل التاسع	: أغلاط مطبعية في الكتاب المحقق	١٦١

المراجع

- كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري
- بدائع البدائ لعللي بن ظافر الأزدي .
- كتاب « بنو سليم » لعبد القدوس الأنصاري .
- ديوان فؤاد الخطيب .
- مجلة المنهل .
- معلقة طرفة بن العبد .
- القاموس المحيط للقيروز آبادي .
- رحلة ابن جبير .
- الحياة الأدبية في العصر العباسي – للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .
- تحقيقات محمد أبو الفضل ابراهيم على طبعة : بدائع البدائ.
- تاريخ الأدب العربي – لحنا الفاخوري .

مجلة المنهل

مجلة شهرية للآداب والعلوم

أنشئت سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م

وقد واكبت النهضة السعودية منذ تأسيسها حتى الآن

في مدى ٤٤ عاماً

صاحبها ورئيس تحريرها : عبد القدوس الأنصاري

مؤلفات عبد القدوس الأنصاري

- التوأمان (أول رواية صدرت بالمملكة) ● اصلاحات في لغة الكتابة والأدب ● آثار المدينة المنورة ● الأنصاريات (ديوان شعر) ● مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي ● بين التاريخ والآثار ● بنو سليم ● تاريخ مدينة جدة ● التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم 'جدة' ● تاريخ العين العزيزية بجدة ومصادر المياه في المملكة العربية السعودية طبع بالمغتين العربية والانكليزية ● مع ابن جبير في رحلته ● رحلة في كتاب من التراث .. (وهو هذا الكتاب) ● طريق الهجرة النبوية .

● الكتاب القادم من :

هذه السلسلة

هو :

● الحسن بن أسد الفارقي ●

أخباره وأشعاره

للباحث العراقي الكبير :

[هلال ناجي]

الملكية الصغيرة

سلسلة كتب ثقافية

يصدرها: عبد العزيز الرقاعي

الرياض : ص.ب. : ١٥٩٠

الكاتب .. والكتاب



أما الكتاب فمن كتب التراث
الطريفة ، يعنى بما ورد على
البديهة من رائع الأقوال
والأشعار .. ومن هنا كان
اسمه (بدائع البدائ) ومؤلفه
(علي بن ظافر الأزدي الحزرجي)
من مشاهير أدباء القرن السادس
الهجري ..

وأما الكاتب وأستاذ الجيل . العلامة البعثة الشيخ
عبد القدوس الأنصاري ، أحد الرواد القلائل الذين قام الأدب
في المملكة العربية السعودية على أكتافهم القوية .. وهو صاحب
مجلة المنهل .. المجلة العتيقة الصامدة ، التي بلغت من عمرها
المديد العام الرابع والأربعين .. والتي كانت ولا زالت ميدانا
جال فيه الكثير الكثير من الفرسان !

والأستاذ الأنصاري أسهم في ضروب متنوعة من الأدب ،
فارتاد القصة ، وكتب الشعر ، وأغنى المكتبة العربية بعدد وافر
من المؤلفات في تراجم الاعلام والمدن ، وفي الأدب ، والتاريخ ،
والآثار .. وكتابه المقدم اليوم من (المكتبة الصغيرة) هدية من
قلمه المتمكن الرصين ؟

صاحب المكتبة الصغيرة
عبد العزيز الرفاعي